محمود الشرقاوى

رابعة العدوية

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

صدق الله العظيم

احبــك حبــين ، حب الهــوى

وحبــا لأنك اهـــل لذاكا

فاما الذى هو حب الهــوى

فشغلى بذكرك عمن ســواكا

واما الذى انت اهـــل لــه

فكشفك لى الحجب حتى اراكا

فلا الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى

ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

« رابعة العدوية »

مقدمة

الانسان جسد وروح ، وهو ذو قلب وعقل ، لا يسعد ولا يرقى رقيا متزنا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها ، ويتغذى غذاء صالحا . ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة الا اذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن فيه للانسان بسهولة أن يبلغ كماله الانسانى ؛ وقد أثبتت التجربة انه لا يمكن ذلك الا اذا كانت قيادة الحياة وادارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة وعلوم نافعة .

وقد تحول الانسان فى ظل الحضارة المعاصرة الى مجرد ترس فى آلة ضخمة ، لأن هذه الحضارة تهتم بالمادة كما يهتم النهم بطعامه . يقول الدكتور الكسيس كاريل فى كتابه « الانسان .. ذلك المجهول » : « ان الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، فقد انشئت دون اية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ انها تولدت فى حالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ، وأوهامهم ، ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلى الرغم من انها انشئت بمجهوداتنا الا انها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا » .

« لقد اهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال ، اهمالا تاما عند تنظيم الحياة الصناعية ، اذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ « الحد الأقصى من الانتاج بأقل التكاليف » حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على اكبر مبلغ مستطاع من المال ، وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد .

« يجب ان يكون الانسان مقياسا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب فى العالم الذى ابتدعه ، انه لم يستطع ان ينظم دنياه بنفسه ، لانه لا يملك معرفة عملية بطبيعته .. ومن ثم فان التقدم الهائل الذى احرزته علوم الجماد على علوم الحيـاة هو احدى الكوارث التى عانت منها الانسانية .. فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحـة لا بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا .. اننا قوم تعساء ، ننحط اخلاقيا وعقليا .. ان الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى على وجه الدقة . الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف . والتى ستكون عودتها الى البربرية والهمجية اسرع من عودة غيرها اليها .

ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هنـاك ما يحميها من الظروف العدائية التى شيدها العلم حولها .. وحقيقة الأمر ان مدنيتنا مثل المدنيات التى سبقتها ، اوجدت احوالا معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة . وذلك لأسباب لا تزال غامضة .. » ان القلق والهموم التى يعانى منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ان بريق الحضارة المادية لا يجوز ان يعشى ابصارنا عن حقيقة الشقاء الذى باتت تعانيه البشرية فى ظل هـذه الحضارة ، وان الصواريخ المطلقة ، والأقمار الصاعدة لا يجوز ان تلهينا عن الدرك الذى ينحدر اليه الانسان « ومقومات الانسان » !! ان الانسان هو اكرم ما فى هذه الأرض . انه هو الكائن الأساسى فيها ، والمستخلف فى مقدراتها . وكل شيء فيها فى خدمته ــ او ينبغى ان يكون كذلك ــ وانسانيته ، هى المقوم الأعلى الذى يقاس به مدى صعوده او هبوطه ؛ وسعادة روحه هى مقياس ما فى الحضـارة التى يعيش فيها من ملاءمة لطبيعته او مصادمة .

ان الحضارة المادية قد فشلت فى تحقيق سعادة الانسان ،
والاسلام ـ وحده ـ هو القادر على انقاذ الانسانية مما يحدق بها
من اخطار هائلة ، وهو وحده القادر على منحها المنهج الملائم لفطرتها
ولاحتياجاتها الحقيقية . وهو وحده الذى ينسق بين خطاها فى
الابداع المادى وخطاها فى الاستشراف الروحى ، لتعيش حياتها
آمنة على يومها ، مطمئنة على غدها فى ظل الحرية والمساواة والاخاء
والعدل الاجتماعى وكل ما يكفل للانسان التقدم والرقى ..

***

وقد أملى القرآن المجيد على المسلمين الفضائل الخلقية من
صرامة ارادة وقوة نفس ومحاسبتها والانصاف منها ، وكان ايمان
المسلم أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق ، وعلم النفس عن الزلات
الخلقية والسقطات البشرية ، وكان ذلك حيث لا تراقبه عين
ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الايمان نفسا لوامة عنيفة ووخزا
لاذعا للضمير وخيالا مروعا ، لايرتاح معه حتى يعترف بذنبه أمام
القانون ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئنا مرتاحا
تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة .

يروى المؤرخون الثقات فى ذلك طرائف لم يحدث نظيرها الا فى
التاريخ الاسلامى . فمنها : ماروى مسلم بن الحجاج القشيرى
صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن
مالك الأسلمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :
« يا رسول الله انى ظلمت نفسى وزنيت وانى أريد ان تطهرنى »
فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله انى قد زنيت »
فرده الثانية ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قومه
فقال :

ـ أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئا ؟

فقالوا : ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى .

فاتاه الثالثة فارسل اليهم أيضا فسأل عنه فاخبروه انه لا بأس به ولا بعقله .

فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله أنى قد زنيت فطهرنى » وانه ردها ، فلما كان الغد قالت : يارسول الله لم تردنى ؟ لعلك أن تردنى كما رددت ماعزا ، فوالله انى لحبلى .

قال : أما لا فاذهبى حتى تلدى .

قال : فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة .

قالت : هذا قد ولدته .

قال : فاذهبى فارضعيه حتى تفطميه . فلمافطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام. فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمر فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى راسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبى الله سبه اياها ، فقال : « مهلا يا خالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

وكان هذا الايمان حارسا لامانة الانسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه النزوع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفى سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا .

ومن هنا كان ذكر الله ومراقبته أعلى شعب الايمان . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول : لا اله الا الله ، وادناها اماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » .

ويجعل ابن القيم فى كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » الذكر أساسا للمقامات كافة فيقول :

« ان الذكر شجرة تثمر المعارف والاحوال ، التى شمر اليها السالكون فلا سبيل الى نيل ثمارها الا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ، ورسخ اصلها ، كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة الى التوحيد ويقول :

« انه رأس الأصول ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية فمن فتح له فيه ، فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر وليدخل على ربه يجد عنده كل مايريد ، فان وجد ربه عز وجل ، وجد كل شيء ، وان فاته ربه عز وجل فاته كل شيء » .

وذكر الله جل شأنه عمل مؤثر فى الكون ، وطاقة من الطاقات الهائلة فى الحياة العامة ، أليس المطر ينزل بصلاة الاستسقاء ؟ وأليس البلاء يرفع بالدعاء ؟

يقول الله تعالى :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

ان الذكر اشراقة فى القلب ، تطوى للانسان مابين السموات والأرض ، فاذا بكل شيء واضح كالصبح المبين . واذا بكل شيء مطيع للذاكرين العابدين ، انه الصلة الكبرى برب العالمين .

وفى الحديث القدسي : « وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى لأعطينه ، وان استعاذنى لأعيذنه » .

انه من هذه الصلة الكريمة تتفجر الهامات التصوف ومقاماته ، يقول الامام الغزالى : « وماذا يقول القائلون ، فى طريقة أول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله . وأول هذه الطريقة

المكاشفات حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ، ويسمعون منهم أصوتا ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ان طريق السعادة والهدوء والطمانينة والأمن والرخاء واضح لا التواء فيه .. انه التمسك بالقرآن المجيد . فهو يهدى للتى هى أقوم .

***

وعلى الصفحات القادمة يلتقى القارىء الكريم بسيدة تقية نقية ، احبت ربها ، واخلصت له الحب ، فأنار قلبها ، ووهبها من لدنه رحمة وعلما .

هذه السيدة الفاضلة هى رابعة العدوية التى قال عنها ماسينيون : « انها تركت فى الاسلام أريجا من الحب وعطرا من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا » .

وقال عنها نيكلسون فى دراساته عن الصوفية فى الاسلام :

« لقد رسمت رابعة معالم الطريق . فاندفع الموكب الصوفى يسير فى سرعة خاطفة على نهجها فى الحب والمعرفة » .

لقد استمسكت رابعة العدوية بالحق منذ فجر حياتها : استمسكت به فى الصورة القرآنية التى اتقنتها حفظا وعلما وعملا ، واستمسكت به فى الصورة النبوية التى أحبتها روحا وسلوكا ، وتأسست بها حسا ومعنى .

لقد جاهدت فى الحياة داعية الى الله فكانت كوكبا تألق فى سماء الروح .. وانعكس ضوؤه على الركب الصوفى الكريم .

ان رابعة وأمثال رابعة من دعاة الايمان ، ورسل الروح وسدنة الاخلاق هم وحدهم منارات التاريخ ، وهداة القافلة وادلاء الموكب البشرى فى طريقه الطويل الشاق ..

انهم وحدهم الذين أطلقوا فى الوجود عطرا ، وتركوا فى الكون نورا . وخلفوا وراءهم هدى ، انهم امتداد لرسالات الأنبياء ، انهم لفى الموكب الخالد ، وانهم لفى الصحف المطهرة . « ان كتاب الابرار لفى عليين ، وما ادراك ماعليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ، ان الابرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختـــامه مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

* * *

والله نسأل ان يهدينا جميعا سواء السبيل وان ينفع بهـــذا الكتاب كما نفع بالسيدة رابعة العدوية ، انه قريب مجيب الدعاء ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين » .

محمود على الشرقاوى

١ ـ فى الطريق إلى رابعة

اختلف مؤرخو الأدب فى وجه اشتقاق كلمة « صوفية » . قال الصوفية انفسهم انها مشتقة من الصفاء ، وان الصوفى رجل صافاه الله ، فهو رجل صوفى « فعل ماض مبنى للمجهول » فهو صوفى . وقيل اشتق هذا الاسم من الصف الأول ، كان نفر من المسلمين يذهبون مبكرين الى الصلاة : فيجلسون دائما فى الصف الأول .

وقيل بل من الصفة « وهى دكة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة كان يأوى اليها نفر من المسلمين وينقطعون للعبادة » . وذلك كله مخالف للاشتقاق اللغوى .

وزعم نفر من المستشرقين أن كلمة « صوفية » تعريب لكلمة « سوفيا اليونانية » اى الحكمة . وذلك مخالف لأصول التعريب التى جرى عليها العرب .

والذى اجمع عليه جمهور الباحثين قديما وحديثا أن كلمة « صوفية » مشتقة من « الصوف » وكان الصوف هو اللباس الغالب على الزهاد والعباد .

يقول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق :

« ان الصوفى نسبة الى الصوف ، وان التصوف مأخوذ منه أيضا . فيقال تصوف اذا لبس الصوف ، كما يقول تقمص اذا لبس القميص ، فلهذا القول وجه سائغ فى الاشتقاق وهو مختار كبار العلماء من الصوفية مثل صاحب اللمع وشارح الرسالة القشيرية »

وروى فى بعض الأحاديث أن الرسول الكريم كان يلبس الصوف وروى أن الصوف كان من لباس الانبياء والصحابة .

ويقول الجاحظ عن محمد بن القاسم :

« لقب بالصوفى لأنه لم يكن يلبس الا الصوف الأبيض ، وكان عالما فقيها دينا زاهدا حسن المذهب ، يقول بالعدل والتوحيد » .

وعرف الأمام الغزالى التصوف فقال :

انه « عمل مبنى على العلم » وانه قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب من غير الله وتحليته بذكر الله . فالتصوف اذن تأمل دائم فى النفس ، ورعاية كاملة لتطبيق مبادىء العقيدة حتى يتوصل المعتقد عن طريق التأمل والعمل الى تنقية سريرته فيتقرب من الله ويبتعد عمن سواه .

والمتصوفون قوم آثروا « الالهام » على العلم ، فهم لايؤمنون بالنظريات والادلة والبراهين ، بل بجهاد النفس والطاعة والاخلاص والايمان ، وهى أمور تنشأ عنها صفات واحوال لها نتائج وثمرات ترقى الى مقام التوحيد والعرفان .

واذا ابتدأ الصوفى سفره الروحى وجب ان يبدأ بالمقام الأول الذى هو فى الحقيقة استعداد لاجتياز المقامات التى تؤلف طريقه . هذا المقام الأول هو :

ـ مقام التوبة :

ومعنى التوبة للمريد (المبتدىء) ان يذكر ذنبه دائما ، أما المحقق المتقدم فى رياضة النفس فالتوبة له معناها نسيان ذنبه ، وبعد ان يبدأ المتصوف سفره يبدأ فى « سلوك الطريق » وقد استعد لذلك بالتوبة ، يمر بالمقام الأول او المحطة الأولى :

١ ـ مقام الورع :

والورع أن يمتنع الصوفى السالك عن كل حرام وأن يتعفف عن كل أمر فيه شبهة . واذا تشابه الأمر عليه ثم لم يستطع احد ان ينقذه من حيرته فليستفت قلبه ، بل ليتبع فتوى قلبه ولو افتاه الناس بخلاف ما يكون قد اطمأن قلبه اليه .

٢ ـ مقام الزهد :

والزهد هو الاعراض عن جميع ما فى الدنيا . وان يخلى المتصوف قلبه مما خلت منه يداه ، وان تفقد الدنيا فى عينه كل قيمة . ويشترط الا يكون الزهد خوفا من النار او رجاء للجنة ، بل ميلا وطيدا هادئا عن الدنيا حتى يستطيع المتصوف أن ينصرف بكليته الى الله .

٣ ـ مقام الفقر :

وذلك الا يقبل المتصوف أن يملك شيئا . بل يكتفى من الدنيا

بالضرورى الذى يحفظ عليه قوته ليمضى فى طاعة الله . واذا فقد المتصوف هذا الضرورى سكت ولم يبال .

٤ ــ مقام الصبر :

وذلك ان يصبر المتصوف على كل مايناله فلا يشكو من الألم ولا يتمنى زوال ضره ، بل ليعد ذلك ابتلاء من الله واختبارا ، فانه من نعم الله .

٥ ــ مقام التوكل :

وفيه يترك المتصوف الاهتمام بأمور الدنيا ولا يدخر للمستقبل ولا يتمنى حالا ، فان الله الذى خلقه هو الذى يدبره ، ثم يأتى المقام الأخير .

٦ ــ مقام الرضا :

وذلك ان يتقبل المتصوف كل ما يأتى من الله باطمئنان .

بعد هذا يكون السفر قد بلغ مداه ، ويكون الصوفى قد أصبح نقى القلب مستعدا لتلقى المعارف من الله تعالى ، اذا كان قد رافق هذه المقـــامات « أحوال » نزلت بالقلب وساعدته على أن يتطهر وينقى .

هذه الأحوال تنزل من لدن الله الى القلب فلا يستطيع الانسان لها دفعا ولا يقدر ان يحتفظ بها فوق ما اراده الله ، وهذه الأحوال هى :

حال مراقبة النفس ومحاسبتها ــ القرب ــ المحبة ــ الخوف ــ الرجاء ــ الشوق ــ الأنس ــ الاطمئنان ــ المشاهدة ــ اليقين .

والاحوال هذه « جو نفسانى » يحيط بالمتصوف فى اثناء تقدمه فى المقامات .

ان حال القرب ــ مثلا ــ يقتضى حالين ، فمن المتصوفة من يغلب على قلبه الخوف من نظره الى قرب الله منه ، ومنهم من يغلب على قلبه المحبة . وذلك على حسب ماقسم الله للقلوب من التصديق وحقيقة اليقين والخشية ، وذلك من كشف الغيوب . فان شاهد قلبه فى قربه من سيده عظمته وهيبته وقدرته فيؤديه ذلك الى الخوف والحياء ، وان شاهد قلبه فى قربه لطف سيده وقديم احسانه له ومحبته اداه ذلك الى المحبة والشوق (١) » .

وقد فرق السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » بين المقامات والأحوال فقال :

« الحال ترد ثم تتحول « تذهب » بينما المقام ثابت . فاذا ارتقى الصوفى الى مقام ثبت فيه . ولكن قد يكون الشىء حالا ثم يصبح مقاما . فمحاسبة النفس مثلا تكون فى أول امرها « حالا » . ان الانسان يذنب (أو يهمل) ثم يحاسب نفسه على مافرط من امره . ولكنه بعدئذ يغفل من جديد فيذنب او يهمل فيعود الى محاسبة نفسه ، وهكذا دواليك . فمادام فى هذه الدرجة فالمحاسبة « حينما ترد عليه » تكون حالا له ، ولكن اذا تأدبت نفس الانسان واصبح يقظا لا يغفل عن نفسه (فلا يذنب ولا يهمل) اصبحت المحاسبة له مقاما .

---

(١) د . عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ص ٣٨٦ ـ ٣٨٨ .

بعد هذه « الرياضة » القاسية التى مارسها الصوفى فى أثناء « سفره » أصبح قلبه مستعدا لقبول نور اليقين ، واصبح ينظر بنور الله ، واصبح له فراسة المؤمن يعرف المعلومات التى لا يعرفها من هم دونه من البشر .

وهنا يدخل المتصوف فى الوجد ، فى « حال من الشعور الخفى » هو بدء النشوة فى نفس الصوفى للاقتراب من الله فتنصرف حواسه كلها عما حوله الى التأمل فى الله الواحد ، ويدخل على القلب من أجل ذلك غبطة واسعة .

ويأتى بعد ذلك الفناء ، ويبطل شعور المتصوف بكل ما حوله وتتعطل حواسه الظاهرة ، فلا يدرك فى خارج نفسه شيئا ، حتى لو أصيب أحدهم بسهم ثم نزع ذلك السهم من جسمه لما شعر قط .

فالتصوف علم قائم بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق ، وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ، ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان .

يقول ابن القيم :

ان التصوف عام مبنى على الارادة فهى أساسه ومجمع بنائه ، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الارادة ، وهى حركة القلب ، ولهذا سمى « علم الباطن » كما ان علم الفقه يشتمل على تفاصيل احكام الجوارح ، ولهذا سمى « علم الظاهر » وبذلك يتبين ان خطوات التصوف فى سبيل التكوين العلمى كانت عبارة عن نشأة علم الأخلاق الاسلامى .

يقول ابن خلدون عن التصوف فى مقدمته المشهورة :

« وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، واصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية ، واصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع الى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة » .

وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى من الهجرة وما بعده ، وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

والزهد فى الدنيا ليس معناه كراهية الدنيا وعدم الالتفات اليها ، وانما المقصود به عدم حب الدنيا ، وفرق كبير بين المنزلتين . فالكراهية تدعو الى التباعد والنفور . وعدم الحب ليس فيه أكثر من عدم الاهتمام وعدم الالتفات والترقب . كان الصحابة والسلف الصالح اذا أقبلت الدنيا عليهم لم يقبلوا عليها بقلوبهم ، ولكنهم كانوا يصرفونها بعقولهم وحسن تدبيرهم .

ان الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة ، ومتاع زائل ، والآخرة هى الباقية ، الخالدة ، فهى الحياة الحقيقية ، يقول الله تعالى :

« وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وكان أصحاب الرسول الكريم يرون حال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاشه وشدة عيشه ، فقد يلبث الأيام لا يذوق طعاما ، يروى انس بن مالك رضى الله عنه أن فاطمة بنت رسول الله

صلى الله عليه وسلم جاءت بكسرة خبز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : « ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ » قالت عليها السلام : « قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى اتيتك بهذه الكسرة » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اما انه اول طعام دخل فم ابيك منذ ثلاثة ايام » .

وقد فتحت على الخلفاء الراشدين الدنيا وملكوا خزائن الارض، فلم تملك منهم ذرة من انفاسهم ولحظات حياتهم ، فكان زهدهم زهد القناعة الواجدة لازهد الحرمان ، ولا زهد التصبر ، زهدهم لم يمنعهم ان يحملوا راية الاسلام خفاقة حتى تضعها جيوشـــهم فى اقصى المعمورة فى الارض .

ذكر الامام القرطبى فى تفسيره حديث ابى حازم مع سليمان ابن عبد الملك فقال :

روى الدرامى ابو محمد فى مسنده عن الضحاك بن موسى قال : مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة ــ وهو يريد مكة ــ فاقام بهـــا اياما ، فقال :

ــ هل بالمدينة احد ادرك احدا من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟

قالوا له :

ــ ابو حازم ، فأرسل اليه ، فلما دخل عليه قال له :

ــ يا ابا حازم ما هذا الجفاء ؟

قال ابو حازم : يا امير المؤمنين واى جفاء رايت منى ؟

قال سليمان : اتانى وجوه اهل المدينة ولم تأتنى !

قال ابو حازم : يا امير المؤمنين اعيذك بالله ان تقول مالم يكن ، ماعرفتنى قبل هذا اليوم ، ولا انا رأيتك .

فالتفت سليمان الى محمد بن شهاب الزهرى وقال : اصاب الشيخ واخطأت .

قال سليمان : يا ابا حازم ! مالنا نكره الموت ؟

قال ابو حازم : لأنكم اخربتم الآخرة ، وعمرتم الدنيا ، فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب .

قال سليمان : اصبت يا ابا حازم ، فكيف القدوم غدا على الله تعالى ؟

قال ابو حازم : اما المحسن فكالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

فبكى سليمان . وقال : ليت شعرى ! مالنا عند الله ؟

قال أبو حازم : اعرض عملك على كتاب الله .

قال سليمان : وأى مكان اجده ؟

قال ابو حازم : « ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم »

قال سليمان : فأين رحمة الله يا ابا حازم ؟

قال ابو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين .

قال سليمان : يا ابا حازم ! فأى عباد الله اكرم ؟

قال ابو حازم : اولوا المروءة والنهى .

قال سليمان : فأى الأعمال افضل ؟

قال ابو حازم : دعاء المحسن اليه للمحسن .

قال سليمان : فأى الصدقة افضل ؟

قال ابو حازم : للسائل البائس وجهد المقل ، ليس فيها من ولا اذى .

قال سليمان : فأى القول أعدل ؟

قال ابو حازم : قول الحق عند من تخافه او ترجوه .

قال سليمان : فأى المؤمنين اكيس ؟

قال ابو حازم : رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان : فأى المؤمنين احمق ؟

قال ابو حازم : رجل انحط فى هوى اخيه وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره .

قال سليمان : أصبت يا أبا حازم ، فما تقول فيما نحن فيه ؟

قال أبو حازم : أو تعفينى ؟

قال سليمان : لا ، ولكن نصيحة تلقيها الى .

قال ابو حازم : يا أمير المؤمنين ان آباءك قهروا الناس بالسيف ، واخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ما قالوه ، وما قيل لهم ؟ !

فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ؟ !

قال أبو حازم : كذبت ان الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

قال سليمان : فكيف لنا ان نصلح ؟

قال ابو حازم : تدعون الصلف ، وتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسوية .

قال سليمان : فكيف لنا بالمأخذ به ؟

قال ابو حازم : تأخذه من حله ، وتضعه فى أهله .

قال سليمان : هل لك يا ابا حازم أن تصحبنا فتصيب منا ، ونصيب منك ؟

قال ابو حازم : اعوذ بالله .

قال سليمان : ولم ذاك ؟

قال ابو حازم : اخشى ان اركن اليكم شيئا قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات .

قال سليمان : يا ابا حازم ارفع الينا حوائجك .

قال ابو حازم : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة !؟

قال سليمان : ليس ذلك الى .

قال ابو حازم : فما لى اليك حاجة غيرها .

قال سليمان : فأدع لى .

قال ابو حازم : اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة . وان كان عدوك . فخذ بناصيته الى ما تحب وترضى .

قال سليمان : قط .. ؟

قال ابو حازم : قد اوجزت واكثرت ، ان كنت من اهله ، وان لم تكن من أهله فما ينبغى أن أرمى عن قوس لا وتر لها .

قال سليمان : أوصنى .. ؟

قال ابو حازم : سأوصيك واوجز . عظم ربك ، ونزهه ان يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ؟

فلما خرج ابو حازم من عند سليمان بعث اليه بمائة دينار ، وكتب اليه . ان انفقها ولك عندى مثلها كثير ، فردها عليه ابو حازم ، وكتب اليه :

« يا أمير المؤمنين ، اعيذك بالله ان يكون سؤالك اياى هزلا أو ردى عليك بذلا ، وما ارضاها لك . فكيف ارضاها لنفسى .

ان موسى بن عمران عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه رعاء يسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان ، فسألهما فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير ، فسقا لهما ، ثم تولى الى الظل فقال : « رب انى لما انزلت الى من خير فقير » وذلك انه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فسأل ربه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء وفطنت الجاريتان ، فلما رجعتا الى ابيهما اخبرتاه بالقصة وبقوله فقال ابوهما ــ وهو شعيب عليه السلام ــ هذا رجل جائع ، فقال لاحداهما : اذهبى فادعيه ، فلما اتته عظمته وغطت وجهها ، وقالت : ان أبى يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا ، فشق على موسى حين ذكرت اجرما سقيت لنا ، ولم يجد بدا من ان يتبعها ، لانه كان بين الجبال جائعا مستوحشا ، فلما دخل على شعيب اذهو بالعشاء مهيأ ، فقال له شعيب : اجلس ياشاب فتعش، فقال له موسى : اعوذ بالله ؟

فقال له شعيب : لم ؟ اما انت جائع ؟

قال موسى : بلى ، ولكنى اخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما ، وانا من اهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الارض ذهبا

فقال شعيب : لا يا شاب ، ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف ، ونطعم الطعام ».

فجلس موسى فأكل .

ثم قال ابو حازم فى كتابه الى سليمان . فان كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثت ، فالميتة والدم ولحم الخنزير فى حال الاضطرار احل من هذه .

وان كان لحق فى بيت المال ، فلى فيه نظراء ، فان ساويت بيننا والا فليس لى فيها حاجة » .

قال ابو عبد الله القرطبى معلقا على هذه القصة : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء .

انظروا الى هذا الامام الفاضل ، والحبر العالم ، كيف لم يأخذ على عمله عوضا ، ولا على وصيته بدلا ، ولا على نصيحته صفدا ، بل بين الحق وصدع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فزع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يمنعن احدكم هيبة احد ان يقول الحق او يقوم به حيث كان » .

وفى التنزيل : « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

هكذا يكون الزهد فى الدنيا ، والاعراض عن زينتها وزخرفها .

والدعامة الثانية من دعائم التصوف هى مراقبة الله عز وجل . والنفس الانسانية اذا استشعرت عظمة الله ، واستحضر العاملون فى الحياة قوة الله ، واطلاعه على علانيتهم وسريرتهم ، وانهم مسئولون عن اعمالهم ، محاسبون على ما قدموا من آثار فى حياتهم مجزيون على الخير خيرا وثوابا ، وعلى الشر عذابا ، اذا استحضرت ذلك كله كانت فى عملها مراقبة لله تعالى .

كان الرسول الكريم يقول لاصـــحابه : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش . ولخرجتم الى الصعدات تجارون الى الله » .

واخرج الطبرانى عن الحارث بن مالك الانصارى أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كيف اصبحت يا حارث ؟ قال : اصبحت مؤمنا حقا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : انظر ما تقول ، فان لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟

قال : كأنى انظر الى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى انظر الى اهل النار يتضاغون فيها .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا حارث عرفت فالزم ، عرفت فالزم . عرفت فالزم .

وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام » قالوا : كيف يشرح صدره ؟ قال : « نور يقذف به فيه فينشرح له وينفسح » قالوا : فهل لذلك من امارة يعرف بها ؟

قال : « الانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » .

واستحضار عظمة الله تعالى ومراقبته عند أى عمل يقوم به الانسان هو الاحسان الذى بينه النبى صلى الله عليه وسلم . فقد روى البخارى ومسلم وابو داود والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

« بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه اثر السفر ، ولا يعرفه منا احد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال :

ـ يا محمد اخبرنى عن الاسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وان محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت اناستطعت اليه سبيلا .

قال : صدقت . قال عمر : فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الايمان .

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره .

قال صدقت . قال ، فأخبرنى عن الاحسان .

قال : ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن امارتها . قال : أن تلد الأمة ربتها ، وان ترى الحفاة العراة العالة (اى الفقراء) رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال عمر : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم » .

بين الرسول فى حديثه مقامات الدين : الاسلام والايمان والاحسان .

فمقام الاسلام : ما يختص بالظاهر من النطق بالشهادتين ، الذى يدل على أن العبد مصدق بقلبه بوحدانية الله سبحانه وتعالى وبكل ما جاء به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، والقيام بالواجبات كلها والانتهاء عن المحرمات كلها .

وأما الايمان : وهو مختص بالقلوب ، أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

والاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

والتصوف الصادق الخالص المرادف للاحسان هو قمة السمو فى الاسلام التى يبلغها المصطفون الأخيار .

يقول ابراهيم بن أدهم يصف طريق القوم : « أعلى الدرجات أن تنقطع الى ربك ، وتستأنس اليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك، حتى لا ترجو الا ربك ، ولا تخاف الا ذنبك ، وترسخ محبته فى قلبك حتى لا تؤثر عليها شيئا .. فاذا كنت كذلك لم تبل (بضم ففتح) فى بر كنت أو فى بحر ، أو فى سهل أو فى جبل ، وكان شوقك الى لقاء الحبيب شوق الظمآن الى الماء البارد ، وشوق الجائع الى الطعام الطيب ، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل ، وأحلى من الماء العذب الصافى عند العطشان فى اليوم الصائف » .

والتصوف ـ كما يقول ابو بكر الشبلى ـ ضبط حواسك ، ومراعاة انفاسك ، وهو تصوير رائع لجهاد النفس فى أدق صوره واكمل الوانه .

ومن مجاهدة النفس فى الطريق الصوفى تكونت المعارف الصوفية والالهامات الباطنية ، كما تكونت الخصائص الصوفية التى هى طابع الطريق وعلامته ، كالتوبة ، والندم والعزلة والخلوة والزهد والتوكل والصبر والشكر والايثار ، الى غير ذلك من الصفات الجليلة التى تدخل تحت نطاق الآية الكريمة : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

ومجاهدة النفس فى منطق الاسلام هى الذروة العليا من صفات الكمال .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف لنا فى حديثه المشهور مراتب المؤمن فيقول :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على أموالهم واعراضهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه وهواه » .

فجعل مرتبة جهاد النفس هى أعلى المقامات الاسلامية وأسماها .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر .

ـ وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟

ـ جهاد النفس .

فجهاد النفس قد وضع دستوره نبى الاسلام :

والتصوف ليس الا تصفية للنفس ، وكشفا لحجاب الحس وتهذيبا للقلب على الوجه الذى يجعل الانسان انسانا حقا خليقا بما ينطوى عليه معنى الانسانية من أسمى معانى الحق والخير .

والقرآن حين يفتح للمسلم ابواب الحياة الروحية يحرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية ، وينهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها :

— « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين » .

— « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

فالحياة الروحية فى الاسلام تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية ، لا استغراق فى الجسد ولا انقطاع عنه فى سبيل الآخرة .. قوام بين هذا وذاك .

لقد ربط الاسلام الدنيا بالآخرة ، رباطا خالدا لا انفصام له ، وبذلك تحولت الأعمال جميعها فى الاسلام الى عبادة وعمل روحانى .

* * *

روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله :

« من احب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه » .

والحب يقتضى ذكره تعالى بالقلب والتفكر فى دلائل وجوده ، وبراهين وحدانيته وآيات جلاله بما نصبه فى الكون من شهود حكمته فى خلقه وبديع صنعه . ومحكم تدبيره ، وعظيم فضله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل « انا عند ظن عبدى بى ، وانا معه حين يذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وان اقترب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان اقترب الى ذراعا اقتربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة » .

وهذه العبارات تمثيل لرضاء الله عز وجل على عباده الذاكرين له ، وان هذا الرضا يتنزل فى مراتب متفاوتة على حسب تفاوت طرائق المجاهدة التى يقوم بها الذاكرون مقرونة بالاخلاص .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون اهل الذكر فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا الى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم الى سماء الدنيا ، فيسألهم ربهم — وهو اعلم بهم — ما يقول عبادى ؟ قالوا : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك . فيقول الله : هل رأونى ؟ فيقولون : لا والله ما رأوك ، فيقول : كيف لو رأونى ؟ فيقولون لو رأوك كانوا اشد لك عبادة ، واشد لك تمجيدا ، واكثر لك تسبيحا ، فيقول الله عز وجل : فماذا يسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة . فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها . فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا اشد حرصا عليها ، واشد لها طلبا ، واعظم فيها رغبة . فيقول : فمم يتعوذون ؟ فيقولون : من النار ، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ما رأوها ، فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فيقولون : لو رأوها ؟ كانوا اشد منها فرارا ، واشد لها مخافة . فيقول : فاشهدكم انى قد

غفرت لهم . يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، انما جاء لحاجة ، فيقول الله : هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الا اخبركم بخير اعمالكم وأزكاها عند مليككم وارفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من انفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ويضربوا اعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال ذكر الله تعالى » وهذا الحديث الشريف فيه تفضيل للذكر عن الجهاد والجهاد افضل الطاعات ــ وقد يثور فى النفس تساؤل : كيف تكون للذكر هــذه الدرجة الرفيعة وهو من أيسر العبادات واقلها مشقة ؟

وقد عرض لهذه الشبهة الامام الغزالى فقال : « فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار افضل وانفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ . فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق الا بعلم المكاشفة ، والقدر الذى يسمح بذكره فى علم المعاملة أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب ، فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى ، وفى الأخبار ما يدل عليه ، وحضور القلب فى لحظة بالذكر ، والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضا قليل الجدوى ، بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو فى أكثر الأوقات هــو المقدم على العبادات ، بل به تشرف سائر العبادات ، وهو غاية ثمرة العبادات العملية .

وللذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الأنس والحب ، وآخره يوجبه الأنس والحب ، ويصدر عنه ، والمطلوب ذلك الأنس والحب ،

فان المريد فى بداية امره قد يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس الى ذكر الله عز وجل ، فان وفق للمداومة انس به وانغرس فى قلبه حسب المذكور .

ولا ينبغى ان يتعجب من هذا فان من المشاهد فى العادات ان تذكر غائبا غير مشاهد بين يدى شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه ، وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر ثم اذا عشق بكثرة الذكر المتكلف اولا صار مضطرا الى كثرة الذكر آخرا بحيث لا يصبر عنه ، فان من احب شيئا اكثر من ذكره ، ومن اكثر من ذكر شيء وان كان تكلفا احبه .

فكذلك اول الذكر متكلف الى ان يثمر الانس بالمذكور والحب له ، ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجب موجبا والثمر مثمرا ، وهذا معنى قول بعضهم : كابدت القرآن عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة ، ولا يصدر التنعم الا من الانس والحب ، ولا يصدر الانس الا من المداومة على المكابدة والتكلف مدة طويلة حتى يصير التكلف طبعا (١) » .

ويقول الامام القشيرى :

« الذكر ركن قوى فى طريق الوصول الى الحق سبحانه وتعالى . بل هو العمدة فى طريق القوم . ولا يصل احد الى الله الا بدوام الذكر » .

والذكر دليل على الحب ..

وكانت رابعة العدوية تذكر الله عز وجل — دائما — طوال

(١) احياء علوم الدين : الجزء الثالث ، ص ٥٤٠ — طبعة دار الشعب .

حياتها .. لأنها كانت تحب ربها حبا عميقا . وقد كانت رضى الله عنها أسبق الصوفية الذين أشاعوا استعمال لفظ الحب فى الاسلام .

كانت رابعة تعبد الله عز وجل لا خوفا من ناره ، ولا طمعا فى ثوابه ، وانما محبة لذاته .

قالت رابعة :

« الهى اذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم ، واذا كنت اعبدك رغبة فى الجنة فأحرمنى منها . واما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا الهى من جمالك الأزلى » .

وكان الحارث المحاسبى من الصوفية الأوائل الذين تكلموا فى المحبة فيشرح لنا المحبة من الناحية النفسية فيقول :

« المحبة ميلك الى الشىء بكلتيك ، ثم ايثارك له على نفسك وروحك ومالك . ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه » .

وأبرز شعراء الحب الالهى فى تاريخ التصوف عمر بن الفارض الذى كانت حياته فياضة بالحب وخاضعة للوجد . يقول :

ان الغرام هو الحياة فمت به
صبا فحقك أن تموت وتعذرا

قل للذين تقدموا قبلى ومن
بعدى ومن أضحى لأشجانى يرى

عنى خذوا ، وبى اقتدوا ولى اسمعوا
وتحدثوا بصبابتى بين الورى

ويقول :

كل من فى حمـــاك يهـــواك لكن
انا وحـــدى لكل من فى حمـــاكا

يحشر العاشـــقون تحت لوائى
وجميـــع المـــلاح تحت لواكا

وقد كان الشاذلية من الصوفية يفضلون مقام الرضا على مقام المحبه . فالمحبة عند ابن عطاء الله السكندرى مثلا ، من أجل مقامات اليقين ، ولكنه لا يعتبرها اكمل المقامات التى يتحقق بها السالك فى طريقه الى الله اذ يفضل عليها مقـام الرضا . وذلك لأن الراضى متجرد عن حظوظ نفسه وعن طلب هذه الحظوظ لها وتستوى عنده جميع الأحوال الواردة عليه من الوصل والقطع أو القرب والبعـد لرضاه عن الله فى جميعها . . ولا كذلك المحب فهو يريد دوام الوصلة وشهوة محبوبه . فهو ما يريد لنفسـه . وبذلك يكون مقامـه دون مقام الرضا . يقول ابن عطاء الله السالك : أعلم ان المحبة هى من اجل مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله ايهما أتم ، مقام المحبـة أم مقام الرضا ؟ وان كان الذى نقول به ان مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك الى طلب ما لا يليق بمقامه . الا ترى أن المحب يريد دوام شـهود الحبيب . والراضى عن الله راض عنـه اشهده أم حجبـه ! المحب يحب دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أم قطعـه . ليس هو مع ما يريد لنفسه بل انما هو ما يريد الله له والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لاطلب له .

وابن عطاء الله حين يجعل مقـام الرضا أكمل من مقـام المحبة يخالف « الغزالى » الذى يجعل المحبة اكمل المقامات واعلاها شـأنا ويعتبر الرضا مجرد ثمرة من ثمراتها على نحو ما يستفاد من قوله فى الاحياء « المحبة لله هى الغاية القصوى من المقـامات والذروة العليا من الدرجات . فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضـــا واخواتها . ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها ... » . فالمحبون يضحون فى محبة الله بكل شيء فقد عظم الخالق فى انفسهم فصغر ما دونه فى اعينهم .

يقول الدكتور مصطفى حلمى ، فى كتابه عن ابن الفارض والحب الالهى :

« هل هناك حياة روحية أرقى من هذه التى يداب فيها الانسان على تصفية نفسه ، وتنقية قلبه ، وجلاء عين بصيرته ، وعلى التأمل المتصل فى الكون ، والاتصال الدائم بمبدع هذا الكون ، ومفيض الوجود والحياة والجمال عليـــه ، وهل هنـــاك مذهب أعمق أثرا فى نفس الذى ينتهى اليه ، وفى توجيه حياته العملية من هذا المذهب الذى أقيم على دعائم قوية من الحب الصادق : والرضا الخالص ، والاطمئنان الى كل شيء ، والقبول الحسن لكل شيء ، بحيث تصبح اللذة والألم والنعيم والعذاب والغنى والفقر والسعادة والشـــقاء كلها لديه سواء ، وهل هناك حياة أنعم حالا وأوفر كمالا ، من هذه الحياة التى يبسط عليها الحب والاخاء والمساواة اجنحتها على هذا الوجه » .

خلف المسلمون الصوفية فى الحب الالهى آثارا باقية تعد بحق تراثا روحيا رائعا له خطره فى تقويم الحياة الروحية الاسلامية من ناحية ، وله اثره فى قلوب المقبلين عليه والذائقين له من ناحيـــة اخرى . ومن هذا القبيل ما خلفه كل من رابعة العدوية وذى النون المصرى ويحيى بن معاذ الرازى وعمر بن الفارض وغيرهم ممن روت عنهم كتب الطبقات اقوالا ووصفت لهم فى الحب احوالا وكان لهم فى هذا الحب صفحات ونفحات .

وهذه قصة يقصـــها « ذو النـــون المصرى » عن زهراء الوالهة فيقول :

بينا انا اطوف فى بعض اودية المقدس سمعت قائلا يقول :

« ياذا الايادى التى لا تحصى ، ياذا الجود والبقاء ، متع بصر قلبى بالجولان فى بساتين جبروتك ، واجعل همى متصلا بجود لطفك يا لطيف ، واعذنى من مسالك المتجبرين بجلالك وبهائك يا رءوف ، واجعلنى لك فى كل الحالات خادما وطالبا ، وكن لى يا منور قلبى، ويا غاية طلبتى صاحبا .

قال ذو النون : فتبعت الصوت ، فاذا امراة كأنها عود محترق ، عليها درع صوف وخمار شعر اسود ، قد اضناها الجهد ، وقتلها الكمد ، وذوبها الحب ، فقلت : السلام عليك .

قالت : عليك السلام ياذا النون .

قلت : كيف عرفت اسمى ولم ترينى ؟

قالت : كشف عن سرى الحبيب ، فرفع عن قلبى حجاب العمى فعرفنى اسمك .

فقلت : ارجعى لمناجاتك .

فقالت : أسألك ياذا البهاء أن تصرف عنى شر ما أجد ، فقـد استوحشت من الحياة ، ثم خرت ميتة ، فبقيت متحيرا .

فأقبلت عجوز كالوالهة نظرت ثم قالت : الحمد لله الذى اكرمها .

ولما سألها ذو النون عمن تكون هذه ، أجابته ، بقولها :

— هذه ابنتى زهراء الوالهة منذ عشرين سـنة ، توهم الناس أنها مجنونة ، وانما قتلها الشوق الى ربها تعالى .

فحب الله ، والشوق اليه ، والوله فيه ، والأنس به ، والتسبيح بحمده على آلائه ونعمائه ، والاستعاذة من المتجبرين بجلاله وبهائه ، كل أولئك معان روحية رائعة تنطق بها كل لفظة من الالفاظ وكل عبارة من العبارات فى صراحة وجلاء بحيث لا تحتاج الى تفسير لها أو تعقيب عليهـا .

وهذه قصة أخرى من قصص المحبين الالهيين ، لعلها أوضح وأصرح فى الدلالة على معنى الحب الانسـانى الالهى ، والابانة عن أرقى وأسمى المثل التى ينبغى أن يحققها المحب لله ، وهو ان يفرغ قلبه لله ، ويركز حبه فى الله .

ورد فى كتاب « الروض الفائق فى المواعظ والرقائق » للشيخ الحريفيش ، انه حكى عن رابعة العدوية — رحمها الله تعالى — أنها كانت اذا صلت العشاء ، قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت :

« الهى ! انارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخـلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقـامى بين يديك . ثم تقبل على صلاتهـا ، فاذا كان وقت السحر ، وطلع الفجر ، قالت : « الهى ! هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقبلت

منى ليلتى فأهنــا أو رددتهـا على فأعزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما احييتنى واعنتنى . وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك .

ثم انشدت :

يا سرورى ومنيتى وعمــادى	وانيسى وعـدتى ومـرادى
أنت روح الفـؤاد انت رجـائى	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك ، يا حيـاتى وانسى	ما تشـتت فى فسيح البـلاد
كم بدت منة وكم لك عنـدى	من عطـاء ونعمـة وأيادى
حبـك الآن بغيتى ونعـيمى	وجـلاء لعين قلبى الصـادى
ليس لى عندك ما حييت براح	أنت منى ممكن فى الســواد
ان تكن راضيـا على فـانى	يا منى القلب قد بدا اسعادى

وبين هنا أن الحبيب الذى تتغنى رابعة بحبه فى مناجاتها انما هو الله ، الذى تقبل عليه وتخلو اليه ، وتداب على حبهـا له فلا تبرح بابه ، ولا تدع رحابه ، ذلك بأنها قد اتخذت من الله حبيبا لها ، ومؤنسا لروحها ، ومنية لقلبها وبغية لحبها ، وكل أولئك معان تلائم ملاءمة تامة مذهب رابعة فى الحب الالهى ، هذا الحب الذى أحبت فيه الله لا خوفا من ناره ، ولا طمعا فى جنته ، ولكن ابتغـاء لوجهه واجتلاء لطلعته ..

ورابعـة العدوية هى صاحبة مدرسـة الحب ومؤسستها فى الاسـلام ، وان كل من قفا آثارها ، ومشى على نهجهـا ، وسبح فى بحارها لم يأت بجديد ، اذا نظرنا الى الجوهر : حتى ابن الفارض سلطان العاشقين وامام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد ، لم يزد مع سموه فى الحب الالهى شيئا عما قالته رابعة العدوية (١) » .

(١) د. محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الالهى : ص ٣٦٢ .

وذى النون المصرى استاذ من تحدث عن الحب والمعرفة تقول عنه دائرة المعارف الاسلامية (١) : « والمتأمل فيما أثر عن ذى النون من اقوال منثورة وقصائد منظومة ، يلاحظ انه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعا صريحا سواء فى تعبيره عن اقبـال الله على العبد ، أو اقبال العبد على الله . وانه باستعماله لفظة الحب بنـوع خاص انما يشارك رابعة العدوية التى تعد أول من استعمل هـذه اللفظة استعمالا صريحا فيما كانت تناجى به ربهـا . او فيما كانت تتحدث به عن علاقتها به ، واقبالها عليه وايثارها له » .

لقد تركت رابعة — كما يقول العلامة ماسنيون — فى الاسـلام اريجا من الحب وعطرا من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا ..

---

(١) العدد ١١ ص ٤٢٩ — المجلد التاسع .

٢ ـ صورة عصر

كان العراق فى مطلع القرن الثانى للهجـرة ، قلب الانسانيـة النابض بالفكر والحياة والقوة ... وكانت البصرة نجما يتلألأ فى العراق ... مدينة تعد من أقدم المدن الاسلامية .. تقع عند ملتقى دجلة والفرات ، وهو ما يعرف بشط العرب ، وموقعهـا قريب من الماء والمرعى فى طريق البر الى الريف ، فيه قصباء (١) ، ودونه منافع مـاء .

وكان السبب فى نزول المسلمين بها ، أن سويد بن قطبة الذهلى كان يغير على العجم فى ناحية الخريبة من البصرة قبل أن ينزلهـا المسلمون ، ولما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه خبره وما يصنع بالبصرة ، رأى أن يوليها رجلا من قبله ، وان ينزلهـا المسـلمون ، ليحولوا بين أهل فارس ومن اليهم ، وامداد اخوانهم من أهل المدائن ونواحيها ، فولاها عتبة بن غزوان ، وقال له :

---

(١) القصب محركة كل نبات ذى انابيب ، والقصباء جماعتها أو منبتها ـ القاموس .

ــ ان الحيرة قد فتحت فأت انت ناحية البصرة ، واشغل من هناك من اهل فارس والأهواز وميسان عن امداد اخوانهم .

فسار اليها عتبة فى اكثر من ثلاثمائة رجل ، وانضم اليهم سويد ابن قطبة فيمن معه من بكر بن وائل ، وتميم ، يقول الطبرى :

« فاقبل عتبة فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وضوى اليه قوم من الاعراب ، واهل البوادى ، فتقدم البصرة فى خمسمائة ، يزيدون قليلا او ينقصون قليلا ، فنزلها فى شهر ربيع الأول او الآخر سنة اربعة عشر (١) » .

كتب عتبة الى عمر يستأذنه فى تمصير البصرة ، وقال له :

ــ « انه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ، ويكتسون ــ اى يستترون ــ فيه اذا انصرفوا من غزوهم » .

فكتب اليه عمر بن الخطاب :

« ان ارتد لهم منزلا قريبا من المراعى والماء ، واكتب الى بصفته » .

فكتب اليه :

« انى قد وجدت أرضا كثيرة القضة (٢) ، فى طرف البر الى الريف ، ودونها منافع فيها ماء ، وفيها قصباء » .

ولما وصلت الرسالة الى عمر قال :

ــ « هذه ارض بصرة ، قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب » وكتب اليه ان انزلها ، فنزلها وبنى مسجدها من قصب ، وبنى دار امارتها دون المسجد ، وبنى الناس سبع دساكر من قصب ايضا لكثرته هناك ، فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب ، ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو ، فيعيدوا بناءها كما كان .

---

(١) الطبرى : ج ٢ ، ص ٥٩٠ .
(٢) القضة : الحجارة المجتمعة المتشققة ، وقيل الارض ذات الحصى .

ولما مات عتبة ولى عمر بن الخطاب عليها أبا موسى الأشعرى ، واختط الناس ، وبنوا المنازل باللبن بعد ان أذن لهم عمر رضى الله عنه فى ذلك ، لأن القصب كان يحترق ، وبنى أبو موسى المسجد ، ودار الامارة باللبن والطين ، وسقفها بالعشب ، وحولها خطط ، لكل قبيلة منها خطة ومسجد ومقبرة .

ونظرا لموقعها فرضة (١) للعراق ، ووسطا بين الشام وفارس أسرع اليها العمران ، واتخذها الامويون مقرا لامارة العراق ، فاتسعت عمارتها ، وزادت مساحتها ، واصبحت من أهم المراكز التجارية فى العالم الاسلامى .

وقد فتحت البصرة صدرها للعلماء والمفكرين ، ونفذ اليها ترف الأكاسرة ، وتدفقت عليها اموال الفرس فغدت مدينة مترفة ناعمة .

قال سهل بن عبد الله التسترى :

« لما دخلت مدينة البصرة وجدت فيها أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة » .

ويقول ياقوت فى معجمه :

« انها كانت تطوى تحت اجنحتها مئات من دور العزف والغناء ، واللهو الناعم » .

وفى خضم هذه الحياة العجيبة : الذاهبة بين الايمان والمعرفة ، واللهو والترف .. عاشت جماهير من الفقراء .. فى مسغبة ، لا تنبض عروقهم بالحياة ، ولا تسكن سكون الموتى !! جماهير من الفرس والعرب والروم والزنوج ، جمعهم الاسلام وصهرهم فى

---

(١) الفرضة بالضم من النهر ثلمة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن.

بوتقته فانساهم حمية النسب واتجه بهم الى حمية الفكرة ، وايمان الرسالة ...

وقد نشأت فى البصرة ، عصر رابعة مدرسة كبرى ذات فروع متعددة فى الثقافة واقبل على حلقات هذه المدرسة روادها من مختلف القبائل والشعوب التى اعتنقت الاسلام ، ثم كانت للبصرة وحدة فكرية قامت بأرجائها ومجالسها ، فعبرت هذه المدينة عن نزعة عقلية جديدة . ومذهب عام فى الحياة الاجتماعية والأدبية ، وقد وقعت البلاد العربية فى هذا العهد وما بعده بقليل فى أحبولة المنازع العنصرية والسياسية ، فكانت البصرة عثمانية الهوى ، والكوفة علوية التشيع ، والشام اموية الميل ، والخارجيون نزحوا الى الجزيرة وطبعوها بطابعهم ، وكانت هذه التيارات المتناحرة يصادم بعضها بعضا فتؤثر فى الفكر والمجتمع . وقد اتخذت البصرة فى نزعتها الموحدة فى النحو نفسه واللغة مذهبا خاصا يخالف ما عند اهل الكوفة ، وقد تفرع لدى الباحثين آراء كثيرة فى النحو والاعراب جاءت ممن كانوا فى البصرة أو سكنوا الكوفة .

ولما اشتد الخلاف بين المذاهب الدينية ، واحتدم الصراع بين اتباعها ، خيف على الدين أن تعبث به الأهواء ، فكانت الضرورة الاجتماعية تدعو الى ظهور أمر يعدل ذلك الغلو فنشأ مذهب المرجئة حتى تستقر الآراء على هدى وبصيرة (١) .

وفى وسط ذلك التيار الزاخر الذى كان يقف سدا أمام تيارات اخرى طلع رجل خطير ترك أثرا عميقا فى الحياة العقلية والنفسية هو الحسن البصرى .. وقد ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ونشأ فى الحجاز واخذ العلم عن رجاله ، ثم انتقل ، قبيل سنة ٤٠ هـ مع والده الى البصرة حيث تابع تخرجه فى العلم وقد توفى فى رجب سنة

---

(١) وداد السكاكينى : العاشقة المتصوفة : ص ٤٥ .

١١٠ هـ (٧٢٨ م) . وقد كافح الحسن البصرى كفاحا رائعا ما تسرب الى المسلمين من أساطير الفرس والهند .

وكان العلم فى ذلك العهد هو الفقه المستمد من آيات القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بأصول الحكم والمعاملة فى البيت والمجتمع ، والاجتهاد فى التفسير والافتاء ، والرواية والتاريخ وغيره مما يتصل بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهاده ومغازيه ، وقصص الأنبياء والمرسلين وحوادث الخلفاء الراشدين .

هذه نواحى العلم الذى كان معروفا فى عصر رابعة العدوية مما نبغ فيه الموالى وجعلهم يتزعمون الحركة الفكرية فى العهد الاموى ليخففوا من حدة العصبية العربية ويتقدموا الصفوف بالرأى والتقرب الى الحكام ، ولئن دخل الايمان قلوبهم وشاركوا فى خدمة الاسلام فان نفوسهم كانت تمور بالحقد والكيد ، وما سلمت أمورهم من تقاليدهم الموروثة التى سرى منها الكثير الى تعاليم الدين حتى تأثرت بمذاهبه مما أدى الى ازدياد الخلاف ، وظهور الخرافات والتهاويل مصبوغة بصبغة اسلامية ، والاسلام برىء منها فانها من بقايا الديانات القديمة كالبرهمية ، كما كان التحيز فى السياسة والقبيلة والعنصر سببا فى حدوث التكتل وانشاء الفرق التى عبرت عن نزعات غريبة ، وأفكار سخيفة كالحلول والتناسخ والامامة الموروثة وغيرها من البدع التى شارك الموالى بنفث سمومهم فيها تنفيسا عن حقدهم الدفين . ولم يتخففوا من هذا الكيد الا فى عهد عمر بن عبد العزيز فقد سار بهم سيرة العدل وساواهم بالعرب فاطمأنوا الى عهده وعهد الى الثقات من علمائهم بالقضاء والفتيا ، منهم يزيد ابن حبيب مولى الأزد ، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز وظيفة الافتاء بمصر وقد توفى سنة ١٢٨ هـ .

ومن علماء الموالى المخلصين الذين اعتزت بهم مجالس العلم والدين الحسن البصرى الذى آسفه الاضطراب والفساد فى حياة المسلمين فرفع صوته بالحق ودعا الى الاصلاح ثم انصرف الى الزهد وبقى يؤدى رسالته ويحملها تلاميذه واتباعه فى حياته حتى مات وهو امام الزهاد .

وقد شهدت رابعة حلقات هؤلاء التابعين ، وحضرت اذكارهم وشاركت فى ثقافتهم وازدادت معرفة على طول الزمن ، حتى تقدمت اقرانها فى هذا الزهد الذى وافق هواها ، وقد شهدت حوادث عصرها وعرفت اطواره واشرفت على الحياة الفكرية والاجتماعية فى ايامها ، ولم يفتها اى شأن من شؤونه ، حتى انتهى امرها الى المذهب الروحى الذى ابتدعته وعرفت به لتخلص فيه من الانسان وتتجه الى الله وحده ، لأن الانسان لم يحقق أملها فقد عرفته مستعبدا مستغلا لا يكف عن تسخير الدنيا لنفسه فأحست بالهدوء والراحة فى هذا الاتجاه الذى سارت فيه ..

لقد احدثت رابعة دويا هائلا فى آفاق الدنيا كلها بكلمة واحدة هى : « محبة الله » :

تقول دائرة المعارف الاسلامية :

« ... ونخلص من هذا الى ان رابعة تختلف عن متقدمى الصوفية الذين كانوا مجرد زهاد ونساك . ذلك انها كانت صوفية بحق يدفعها حب قوى دفاق ، كما كانت طليعة الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص ، الحب الذى لا تقيده رغبة سوى حب الله وحده ، وكانت طليعتهم ايضا فى جعل الحب مصدرا للالهام والكشف » .

جعلت رابعة محبة الله سر الحياة وطابعها وهدفها الاسمى ، ومن محبة الله تنبثق محبة كل ما فى الوجود ..

٣- مولدها ونشأتها

في البصرة ...

حيث احياء الفقراء ، كان كوخ صغير متواضع ، أطلق عليه البصريون « كوخ العابد » يقيم فيه رجل مجرد من متاع الدنيا ، ولكن روحه تفيض بالايمان العميق والرضا التام ، لا يفتر لسانه عن تسبيح الله وذكره ولا يهدأ عن عبادة ربه ، حتى لقب بالعابد .

كان هـذا الكوخ يستقبل كل عام مولودة جميـلة ... لقـد استقبل ثلاث طفلات ، وكانت الام كلما وضعت طفلة . تستقبلها بالدموع ، لأنهـا لا ترى فيها الا عبئـا عليهـا وعلى زوجها البائس الفقير . أما الزوج نفسه ، فكان يستقبل كل طفلة بالشكر والحمد .. انه يرى فى كل مولودة عنوانا لنعمة من نعم الله وفضله وخيره .

وفى ليلة حالكة الظلام ، ماج الكوخ من جديد بالحركة . وهطلت دموع الام ، واتسعت ابتسامة الاب ، فالكوخ يترقب مع الفجر وافدا جديدا من عالم الغيب .

يقول المؤرخ فريد العطار فى « تذكرة الأولياء » :

« وفى الليـلة التى اتت فيها رابعة العدوية إلى الدنيـا ، لم يكن فى بيت اهلها شيء مما يصلح للوليد عند ولادته ، فقد كان

ابوها فقيرا ، حتى انه لم يكن ثمة مصباح النور ، ولا نقطة سمن — للخلاص — ولا قطعة من قماش يلف بها المولود . وكان له ثلاث بنات فسميت رابعة لأنها رابعتهن .

وكان الاب الصالح قد عاهد الله الا يطلب من عبد من عباده شيئا ولكنه ذهب استجابة لضراعة زوجه ، وشفقة على وليدته ، ذهب يطرق ابواب جيرته ، يلتمس عونا ، ولكن الأبواب صمتت فلم يستجب له من ورائها أحد ، ورجع الاب حزينا آسفا ، وبكت الزوجة واقبل الاب على صلاته وتسبيحه . فأخذه النوم ، فرأى النبى صلوات الله وسلامه عليه فى منامه ، فقال له النبى : « لا تحزن فهذه الوليدة سيدة جليلة القدر ، وان سبعين الفا من أمتى ليرجون شفاعتها » ثم أمره صلوات الله عليه بالتوجه الى — عيسى زادان — امير البصرة ويكتب له رقعة يخبره فيها : ان النبى زاره فى المنام وامره ان يذهب اليه وان يقول له : انك تصلى مائة ركعة كل ليلة ، وفى ليلة الجمعة اربعمائة . ولكنك فى الجمعة الأخيرة نسيت ، الا فلتدفع أربعمائة دينار لصاحب هذه الرقعة كفارة عن هذا النسيان .

وفى الصباح كتب والد رابعة الرسالة التى أمر بكتابتها وارسلها عن طريق الحاجب الى الامير ، فلما قراها الامير أمر باعطائه اربعمائة دينار فورا واحضاره اليه ، ثم راجع نفسه فى الحال ، وقال :

— بل انا اذهب اليه ، اجلالا لمن ارسله وساتولى بنفسى العناية بابنته الجليلة القدر » .

تلك رواية العطار عن مولد رابعة ، والعطار أوسع من ارخ لرابعة . وهو فى تاريخه للمتصوفين يسير على نهج خاص به ، هو الاهتمام بالكرامات والعجائب . وما ذكره العطار عن مولد رابعة قد يكون قصة شاعرية ، لا حقيقة واقعة ، ولكنا نأخذ بها ، وان لم تكن قد تأيدت بمصادر اخرى ، فليس هناك ما يمنع من حصولها بل بالعكس رأينا الذين يسرفون فى اتهام العطار — كالدكتور

عبد الرحن بدوى ــ يقولون : « انهم لا يستطيعون رفض ما قاله العطار « لان الوثائق الجديدة التى تتكشف لنا يوما بعد يوم تؤيد كثيرا من الروايات التى أوردها العطار ، وكنا نظن انه وحده الذى يأتى بها (١) » .

وقد اختلفت الروايات التاريخية فى نسب رابعة واسرتها ، فيروى ابن خلكان (٢) « ان رابعة مولاة لآل عتيك . وان آل عتيك بطن من بطون قيس وان اباها اسمه اسماعيل .

وتحدث الجاحظ (٣) عن رابعة فأسماها القيسية وقال : ومن آل عتيك بنو عدوة ، ولهذا تسمى العدوية ، اما كنيتها فأم الخير وهى بنت اسماعيل .

ويؤيد صاحب النجوم الزاهرة ، والزبيرى فى « اتحاف السادة المتقين » . هذه الروايات التى ذكرت أن والدها هو اسماعيل .

وينعتها المناوى فى « طبقات الأولياء » بالقيسية ، بيد انه يختلف مع الروايات السابقة فى اسم ابيها ، لانه يذكر بعدها رابعة العدوية ثانية ، رابعة بنت اسماعيل العدوية . وهى رابعة التى اختلطت بها كتب التاريخ السابقة .

ولقد ميز الشعرانى ، وابن الجوزى ، بينهما فأسموا رابعة التى نؤرخ لها بالبصرية ، وأسموا الأخرى بالشامية أى نسبوا كلا منهما الى البلدة التى عاشت فيها .

ان الروايات التى أسمت والد رابعة باسماعيل ، ولم تتعرض لرابعة الثانية قد تأثرت جميعهــا برواية ابن خلكان ، وهو ليس بعمدة فى تاريخ المتصوفة .

وقد ذكرت هذه الكتب زواج رابعة من أحمد بن أبى الحوارى ، وذكرت ايضا روايات كثيرة عن صلاتها بالحسن البصرى .

---

(١) د. عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الالهى ص ٨ طبعة ١٩٦٢ .
(٢) وفيات الاعيان : ص ٢٥٦ .
(٣) البيان والتبيين : ج ٢ ، ص ٨٥ .

وهذه الصلة وتلك الزيجة لا يقرهما التاريخ ولا يعترف بهما فالحسن البصرى توفى فى مستهل رجب سنة ١١٠ هـ ورابعة العدوية البصرية توفيت عام ١٨٠ هـ .

وابن أبى الحوارى عاش فى الشام فى أوائل القرن الثالث للهجرة ، وهو فتى فى ريعان الشباب ، فكيف تزوج برابعة اذن ، التى كانت قد انتقلت الى جوار ربها منذ اكثر من عشرين عاما .

وهناك خطأ آخر وقع فيه بعض الكتاب ، ذلك هو الصلة المزعومة بين رابعة وذى النون المصرى وهى صلة لا يعترف بها التاريخ ، فذو النون توفى عام ٢٤٥ هـ ، أى أن مولده كان بعد وفاة رابعة بخمس سنوات ، مما ينفى الالتقاء التاريخى بينهما ..

وهذا الخطأ يرجع — بلا شك — الى خلط بعض الكتاب بين رابعة العدوية البصرية ، ورابعة بنت اسماعيل الشامية .

فرابعة بنت اسماعيل الشامية هى التى تزوجت احمد بن أبى الحوارى ، وقد عاشت فى الشام ، وتوفيت سنة تسع وعشرين ومائتين ودفنت براس زنبا ببيت المقدس من جهة القبلة .

ورابعة بنت اسماعيل هى أيضا التى التقت بذى النون المصرى وتبادلت معه الحوار الصوفى ، يؤيد ذلك انهما عاشا معا فى وقت تاريخى مشترك .

وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية يمكننا التمييز بين روايات المؤرخين ، كما يمكننا ان نخلص تاريخ رابعة العدوية البصرية مما لحق به من احاديث واحداث ، تتعلق بسميتها الشامية . فكل رواية تاريخية فيها ذكر للحسن البصرى ورابعة فهى رواية لا يقرها التاريخ ، وكل رواية ذكر فيها رابعة زوج احمد بن ابى الحوارى او رابعة وذى النون المصرى فهى رابعة الشامية . وبذلك تتسق

الروايات التى تحدثت عن زواج رابعة . والأخرى التى ذكرت انها عاشت عذراء . فالتى تزوجت هى رابعة بنت اسماعيل ، والعذراء هى رابعة العدوية البصرية .

ونمشى مع العطار فى روايته عن نشأة رابعة ، فهو يصورها لنا فتاة نشأت مع النور ، فقد كانت منذ طفولتها الباكرة تستيقظ فى غلس الفجر على صلاة أبيها وهو يجهر بالترتيل والضراعة ، فعرفت ابان تفتحها معنى الحلال والحرام ودار على لسانها كلام المتقين والصالحين فما شتمت احدا ولا تبرمت بشىء ، بل كانت مهذبة بالفطرة ، فطنة تلقط ما تسمع من فكرة ودعاء .

جلس اهلها ذات عشية للطعام وقد اقبلوا عليه جميعا ، الا هى تجافت عنه واعرضت ، فسألها ابوها :

ـ ما لك يا رابعة لماذا لا تأكلين ؟

فأجابت رابعة محزونة :

ـ لا ادرى يا ابت هل هذا الطعام حلال أو ...

فارتاع ابوها لما يسمع من قولها المبكر وسألها :

ـ ارايت يا رابعة ان لم نجد حلالا نأكله انقدم على الحرام ؟

فقالت :

ـ نصبر فى الدنيا على جوعنا حتى لا نصبر فى الآخرة على النار !!

وعجب الأب لجواب ابنته ، هذا الجواب الذى لم يسمعه الا فى مجالس الزاهدين ، وحلقات العابدين .. وعجب الأب ايضا لهذا النضوج الفكرى والنضوج الروحى المبكرين ..

كانت تقبل على حفظ القرآن الكريم ، وكلما حفظت سورة جلست اليه تتلوها بخشوع تام ، ودموع الاب تتساقط على خديه ويقول :

ـ رب لم اعددت هذه الفتاة انها ليست كلداتها ونظائرها ..

كان الأب يفكر تفكيرا عميقا فى حزن فتاته ، وفى انطوائها على نفسها ، ومثابرتها وصبرها على القيام والعبادة .. لكنه كان يسمع من شيوخه أن بعض الزاهدين والمتعبدين من دأبهم الحزن والكآبة . كان يعاينها وهى تنمو فى حداثتها نموا مطردا ، وينمو معها قلبها وصبرها على العبادة مثل الكبار ...

تركها ليلة وهى تقرأ القرآن ، وذهب الى فراشه ، واستغرق فى سبات عميق ، واستيقظ فى الصباح فوجدها لا تزال كما تركها مستقبلة القبلة ترتل ، وقد رفعت كفيها ومسحت بهما وجهها .

وظلت رابعة هكذا فى صغرها : ربت نفسها على الايمان والعبادة والزهد ، وكأنما كانت تستعد لمجابهة ما يخفيه لها الزمن من تقلبات ومحن وشدائد . فقد مات أبوها ، وهى لم تزل صبية ، ولحقت به أمها فذاقت رابعة مرارة اليتم الكامل أما وأبا ، ومرارة الحاجة القاسية ، فلم يكن لها أخ من الذكور ولم يترك أبوها مالا وبذلك اطبق الشقاء على رابعة وحرمت من دفء الحنان ورقة العطف والحب الابوى ، وهى تتفتح للحياة ... لكنها تجلدت للمصيبة واتخذت من الايمان والقناعة وسيلة الى العيش يتيمة معدمة ، تقلب نظرها الشارد فى وجود واسع مثل ضائع يتلمس هدى السبيل .

واخذ البصرة جفاف وقحط وصلا الى حد المجاعة فغادرت رابعة واخوتها الكوخ واخذن يضربن فى الأرض يلتمسن القوت ؛ وفرق الدهر بين الشقيقات ففدت رابعة وحيدة فقيرة ، لا تجد قلبا يحنوا عليها ، ولا عاطفة تدفء حياتها ..

ولما انتشرت المجاعة برز المستغلون من السارقين وباعة الرقيق يقتنصون اللواتى عضهن الجوع ، وشردهن الهوان . وكانت رابعة

من هؤلاء الضحايا فقــد تبعها فى طريقها ذئب من هؤلاء الذئاب ، هربت منه صارخة مستنجدة ، ثم وقعت على الارض فأدركهــا الغاصب وجرها من يدها كاحدى السبايا حتى باعها لتاجر بستة دراهم ، وكان التاجر فظا غليظ القلب ، فقسا عليها وارهقها من أمرها عسرا .

ولكن هذا العذاب الشديد ، لم يطفىء القبس المتقــد فى قلبها البكر ، ولم ينــل من الشعــاع المضىء فى روحها الفتى .. كانت رابعة قد اعتصمت بحبل الله المتين ، وكان غذاؤها التعبد والمناجاة .. كان نهارها ارهاقا وعملا متواصلا ، فاذا جن الليل خلت الى ربها ، وحدثته وناجته بلسان العبد الى الرب .. تضرع وتبتهل ، وتناجى وتدعو .. وتسبح وتستغفر ، كانت تناجى ربها والدموع تسيل من عينيها .. انها لم تكن تسأله ان يخلصها مما تلاقى من العذاب . ولكنها كانت تريد ان تعرف شيئا واحدا .

هل هو راض عنها ام غير راض ؟!

يقول فريد الدين العطار :

« كانت رابعة تناجى ربها وهى باكية قائلة :

« الهى انا يتيمة معذبة ارسف فى قيود الرق ، وسوف اتحمل كل ألم ، وأصبر عليه ، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ويفكك أوصــال الصبر فى نفسى منشؤه ريب يدور فى خلدى هل أنت راض عنى ، تلك هى غايتى » .

ان رابعة تنشد رضى الله العلى القدير ولا تبــالى بأحــداث الحياة . لقد فنت فى نشدان الرضا ، والسمة التى تطبع رابعــة طوال حياتها ، هى الفناء فيما تنشد .

ويرسلها سيدها يوما الى السوق تشترى له شيئا ، فاعترض سبيلها ذئب من البشر ، أعجبه شبابها وحياؤها ، وفتنة ذهولها وسمة الحزن التى تكلل وجهها بالنور ، فلاحقها بنظراته الجائعة فاضطربت ، وتعثرت وسقطت على الأرض فانكسر ذراعها وغشى عليها ، فلما استردت صوابها رفعت رأسها تناجى ربها :

ــ الهى قد انكسر ذراعى وانا اعانى الرق والوجع وسأحتمل الضيم والهوان فهل انت راض عنى ؟ الهى حسبى رضاك .

وفى سكون الليل .. والصمت العميق يلف البصرة فى طياته . وقفت رابعة تؤدى صلاتها وذراعها مشدودة الى صدرها ، فكانت تجاهد نفسها للتجلد فى هذا الألم ، وقلبها يتنزى بالدم من ربقة الأسر والرق ، وتدعو الله أن يرضى عنها وينير لها طريق الحياة . وفيما كانت تتوسل وتتضرع أحس سيدها أنها متعبة مكدودة ، وقد تسرب الى سمعه أنينها ودعاؤها وهى تقول :

ــ « الهــى أنت تعــلم أن قلبى يتمنى طاعتك ونور عينى فى خدمتك . ولو كان الأمر بيــدى لمــا انقطعت لحظة عن مناجاتك ، ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبادك » .

وفزع الرجل مما ســمع ، وهالته لهفة رابعــة وضراعتها ، فحدثته نفسه بشيء ، وهم بأمر ، وأرسل نظره نحــوها يتأمل فى خشوعها فشاهد قنــديلا فوق رأســها يحلق ، وهو بسلسلة غير معلق . وله ضياء يملأ البيت كله ، فلما أبصر هذا النور العجيب هب من فوره مناديا رابعــة ، ملتمسا منها أن تصفح عنه وتأخذ حريتها قائلا لها :

ــ انت حــرة يا رابعة ، ان شئت بقيت هنا ونحن جميعا فى خدمتك ، وان شئت رحلت انى رغبت .

وما كادت رابعة تسمع كلمة الحرية حتى نهضت ، تريد مخرجا ، وترجو سماحا وفرجا .

مضت من عند سيدها تتنفس الصعداء ، وتتخفف من وقر الرق الذى أمضها ورفعت كفيها بالحمد لله الذى انقذها من عذاب غليظ لم يفارقها ، منذ مات أبواها ، ومن يدرى أين كان مستقرها بعد أن انطلقت من عند سيدها حرة ؟

يقول فريد الدين العطار :

« ان رابعة بعد تحررها من رقها احترفت مهنة العزف على النـاى زمانا ، ثم اعتزلت النـاس بعد ذلك وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة » .

ويشك الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تلك الرواية ، ويصف رواية العطار عن تحرير رابعة بالأسطورة ، فيقول (١) :

« ولن يستطيع المؤرخ الا أن ينعتها بنعت الأسطورة والشىء الوحيد الذى يمكن أن نأخذ به هو ان رابعة أعتقت ، أما كيف ولماذا ؟ فهذا ما لا تستطيع الوثائق التى بين أيدينا أن تضفى النور عليه ، فلندعه نقطة غامضة الى جانب النقط الغامضة التى لا حصر لها فى حياة رابعة » .

والذى يهمنا هنا هو أن نبين أن الدكتور بدوى لم يسلم برواية العطار عن تحرير رابعة من الرق ونعتها بنعت الأسطورة لأنه يفترض بعد ذلك ما يلى (٢) :

« ان رابعة لما أعتقت اندفعت بفضل الحرية التى وهبتها الى المشاركة فى الحياة الدنيا .. ويخيل الينا أنها قطعت شوطا طويلا

---

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ١٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٦ ، ١٧ .

فى طريق الاثم وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقــوت الحواس حتى الثمالة » .

ولكى يكون هذا الفرض صحيحا ولكى لا يكون هنــاك تناقض كان من الطبيعى أن ينــكر الدكتور بدوى رواية العطار عن تحرير رابعة من الرق .

والا فكيف تكون صاحبة كرامات ثم تفرق بعــد ذلك فى بحر الشهوات ؟

على أننى لا أريد ان اوافق الدكتــور بدوى على قوله ان : « الانقلابات الروحية الكبرى انما تقع دائما نتيجة العنف وافراط ومبالغة فى الطرف الأول المنقلب عنه . فعنف ايمان القديس بولس كان نتيجة لعنف انكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقيــة لدى القديس اوغسطين كان لازما طبيعيا لعنف الحيــاة الشــهوانية الحسية التى حييها قبل تحوله الى الايمان . ان الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ . وما كان يمكن رابعة أن تتطرف فى ايمانها وحبها لله الا اذا كانت قد تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا . من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الانكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الايمان فى الدنيا بأسرها . لهذا ادعو الى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقا للقيم » .

وهذا الرأى يعنى ان الانسان اذا اراد ان يكون مؤمنا حارا قوى الايمان يجب ان يكون ملحدا فاسقا من قبل . فالتطرف يولد من التطرف ، ولو طبقنا تلك النظرية الجليلة على التاريخ لكان الأولياء والقديسون ورجال الايمان والمثاليات ، ملاحدة فسقة اقتاتوا بقوت الحواس وعبوا من الرذائل والموبقات حتى الثمالة .

اعتقد أنها نظرية لا تثبت للمنطق العلمى ، والواقع التاريخى ، والذوق والشم الايمانى . ويقول الدكتور بدوى ان رابعــة بعــد

تحريرها من الرق « انطلقت (١) تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناى والاطراب . وهذا يجعلنا نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ، ولعل هذا يفسر لنا ما روى من اخبار — لعلها اسطورية — عن تقدم الكثيرين للاقتران بها . ودعاها الى اتخاذ هذه المهنة خاصة انها كانت ذات مزاج فنى ممتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد فى غير الفن مجالا للظهور فى الدنيا والمشاركة فى الحياة . والمشاهد عامة فى حياة النسوة اللائى وهبن قدرا من سمو الروح انهن يحترفن الفن اذا ما قضى عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة ، ويحتمل كذلك أنها ابان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت فى طريق الشهوات الى مدى بعيد . فهذه المهنة فى ذلك العصر كان من غير الممكن ان تستقل بنفسها ، ولا أن تكون بمنجاة عن الوان الاغراء بأنواع الأحابيل التى تنصب لمثيلاتها فى هذا المضمار » . ولعل هذا يفسر لنا سبب توبتها فيما رواه العطار من أن « رابعة اتخذت مهنة العزف على الناى مدة ما ثم تابت من بعد ذلك وأصلحت وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة » .

وقد علق على هذه الرواية الأستاذ عبد الباقى سرور فى كتابه « رابعة العدوية » فقال (٢) :

« تلك رواية العطار وقد انفرد بها فان كتب المناقب الاخرى لم تشر الى تلك الفترة التى احترفت فيها رابعة العزف على الناى .. ثم يقول :

«ومن العجب أن الدكتور بدوى فى كتابه عن رابعة شهيدة العشق الالهى كذب العطار فى كل ما رواه عن رابعة ورماه بجموح الخيال

---

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ١٦ .

(٢) ص ٥٠ .

والاغراق الصوفى والكذب التاريخى الى أن وصـل الى قوله عنها انها احترفت العزف على الناى فقال ان هـذه الرواية صـادقة وصادقة لان رابعة كانت كما يقول باهرة الجمال ساحرة الفتنة » وهذه مغالطة لا نقبلها لاننا طلاب حق قبل أن نكون طلاب معرفة ويجب علينا ان نرمى بأهوائنا تحت أقدام البحث العلمى الموضوعى عند دخولنا محرابه . واليك ما قاله الدكتور بدوى بالحرف الواحد:

« ... ونحن نقطع بصحتها ـ رواية العطـار ـ لأنه ما كان للعطار او غيره ان يذكرها لو لم تكن صحيحة لأنها ليست مما يشرف به قدرها وهو وغيره من رواة اخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على ان يزوقوا ما استطاعوا فى ترجماتهم لحيـاة اولئك الصالحين » .

ويقول الأستاذ طه عبد الباقى سرور (١) .

« .. ونلاحظ هنا ان العطار قد ذكر انها احترفت العزف على الناى وليس الغناء ، والناى اداة من أدوات العزف فى سـاحات الأذكار وحلقات المتصوفين ، واذن فما زادت رابعة عن أن تنفست فى هذا الناى تنفسا ايمانيا مع الضـارعين الى الله الهـاتفين فى محاريبه .

لقد وجدت فى الناى شيئا تبثه حرارة قلبها ووقدة ايمانها ، وجدت فيه ترجمانا لما عجز اللسان عن الافصاح به . والأناشيد فى دنيا التصوف ، وعزف الناى عند المتصوفة ليس نكرا ولا بدعا ، بل هو جناح يبعث الوجد ويحرك القلب ويحلق بسامعه » .

وهـذا القول مردود عليـه ، بأن آلات العزف والدف ، لم تستعمل فى الأذكار الا عند « البكتاشية » الذين دخلوا مصر ، ولم تدخل مثل هذه الآلات فى الذكر الى « البصرة » حيث كانت «رابعة»

---

(١) رابعة العدوية : ص ٥٤ .

واستعمال هذه الآلات فى الأذكار ، عادة ، جاءت فى عصور متأخرة عن عصر « رابعة » التى عاشت فى غضون القرن الثانى للهجرة .

ان رابعة التى نشأت مع النور ، لم تنطلق فى حياة آثمة ، ولم يقم دليل واحد على هذا ، بالعكس انها اندفعت فى ذات الطريق التى بدأتها ، ودفعت اليها قبل تحررها من اسر الرق . طريق نشدان رضا الله جلت قدرته ..

تحررت رابعة فاخذت تلوذ بحلقات المساجد وتتصل بالرعيل الأول من رجال التصوف الذين كانوا سادة البصرة فى ذلك الوقت : ابراهيم بن ادهم . ومالك بن دنيار . وسفيان الثورى . وشقيق البلخى .

لقد من الله على رابعة بالحرية ، فعاهدته على ان تعيش حرة من كل شهوات الدنيا ، حرة ، مما يستعبد الناس من زخرف الدنيا وبريق الحياة .. عبدة لمولاها وخالقها وخالق كل شىء فى الوجود .

تقول رابعة :

« لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا » .

ــ لمــاذا ؟

ــ لأنهــا تفنى ..

انها تنشد الخلود ، ولهــذا أوقفت حياتها على نشدان الحب الخالد ، لمن يفنى كل شىء ، ويبقى وجهه ذو الجلال والاكرام ..

لم تمكث رابعة طويلا فى المساجد ، لقد كانت فترة عابرة فى حياتها . اذ سارعت الى حيــاة العزلة تســبح وتستغفر ، وتتأمل وتفكر فى الكون الواسع العريض ، فلم تنشغل بشىء سوى ربها .

سئلت يوما :

ـ كيف بلغت هذه المرتبة العليا فى الحياة الروحية ؟

قالت :

ـ بقولى دائما : « اللهم انى أعوذ بك من كل كائن يشغلنى عنك ، ومن كل حائل يحول بينى وبينك .

كان لا يشغلها سواه (جل جلاله) كانت كلمــا غلبهــا النوم أو أخذتها غفوة أو سهوة استيقظت فزعة ، مبتهلة الى الله مستغيثة وتقول :

ـ قد نامت العيون ، وغفل الغافلون ، وبقيت رابعة الخاطئة بين يديك ، فلعلك تنظر اليها نظرة تمنعهــا بها عن النــوم ، عن خدمتك ، ثم تهتف : وعزتك وجلالك لا أنام عن خدمتك فى ليــل ولا نهار الا غلبة حتى ألقاك » .

وكانت اذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشدت عليهــا درعها وخمارها ثم قالت :

« الهى أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك ابوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبــل على صلاتها . فاذا كانت وقت السحر وطلع الفجر قالت : الهى هــذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأعزى ، فوعزتك هذا دأبى ما احييتنى وأعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك » .

أوفت رابعة بعهدها لله عز وجل ، فما زال شأنها كذلك مع ربها الى ان ماتت .. كانت تتهجد له طوال لياليها حتى يسفر النهار ... فقد روت صديقتها عبدة (١) :

---

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة : ج ٤ ، ص ٥٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ، ص ٢٥٦ .

« كانت رابعة تصلى الليل كله . فاذا طلع الفجر . هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر . فكنت اسمعها تقول اذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة :

« يا نفس ! كم تنامين ، والى كم لا تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها الا لصرخة يوم النشور » فكان هذا دابها دهرها حتى ماتت .

وقد اصيبت فى حياتها بعلة منعتها عن القيام .. روى مسمع ابن عاصم : « قالت لى « رابعة » اعتللت علة قطعتنى عن التهجد وقيام الليل فمكثت اياما اقرأ جزئى اذا ارتفع النهار ، لما يذكر فيه انه يعدل قيام الليل ، قالت : ثم رزقنى الله عز وجل العافية ، فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت الى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل ، قالت : فبينا انا ذات ليلة راقدة ، رايت فى منامى كأنى رفعت الى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن ، فبينا انا اجول فيها اتعجب من حسنها ، اذا انا بطائر اخضر وجارية تطارده كأنها تريد اخذه . قالت : فشغلنى حسنها عن حسنه ، فقلت : ما تريدين منه ؟ دعيه فوالله ما رايت طائرا قط أحسن منه ، قالت : بلى . ثم اخذت بيدى فدارت بى فى تلك الروضة حتى انتهت بى الى باب قصر ، فاستفتحت ففتح لها ، ثم قالت : افتحوا لى بيت ــ لقة ــ قالت : ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدى وما خلفى ، وقالت لى ادخلى فدخلت الى بيت يحار فيــه البصر تلألؤا وحسنا ما أعرف له فى الدنيا شبيها أشبهه به ، فبينا نحن نجول فيه اذ رفع لنا باب ينفذ منــه الى بستان فاهوت نحوه وانا معها فتلقانا فيه وصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ بأيديهم المجامر . فقالت لهم : أين تريدون ؟ قالوا : نريد فلانا قتل فى البحر شهيدا . قالت : افلا تجمروا هذه المراة ؟ قالوا : قد كان لها فى ذلك حظ فتركته ، قالت فأرسلت يدها من يدى ثم اقبلت على فقالت :

صلاتك نور والعباد رقود ونومك ضد للصلاة عنيد
وعمرك غنم ان عقلت ومهلة يسير ويفنى دائما ويبيد

ثم غابت من بين عينى واستيقظت من تبدى الفجر فوالله ما ذكرتها فتوهمتها الا طاش عقلى ، وانكرت نفسى . « قال : ثم سقطت رابعة مغشيا عليها » .

ورابعة فى هذا لم تكن تفعل غير ما سنه القرآن واتت به السنة وسار عليه الصحابة والتابعون . فالآيات التى تحث على قيام الليل عديدة منها :

— « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » (الفرقان : ٦٥) .

— « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (السجدة : ١٦) .

والأحاديث عدة مثل :

— عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم وهو داب الصالحين قبلكم ، ومنهاة عن الاثم ، وملفاة للوزر ، ومذهب كيد الشيطان ، ومطردة للداء عن الجسد » .

وليس من شك ان جمال قيام الليل وروعته ، تتجليان فى لذة المناجاة ، مناجاة العبد المحب للرب الحبيب .

وكانت مناجاة رابعة أصدق تصوير لايمانها العميق وتوحيدها الخالص وحبها المكين .

كانت تقول :

« الهى ما أصغيت الى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد ، الا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على انه ليس كمثلك شىء » .

وكانت تناجي ربها وهي ساجدة :

« سيدى ... بك تقرب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات . ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ، أنت الذى سجد لك سواد الليل ، وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار . لأنك الله العلى القهار » .

تركت رابعة الدنيا ، بما فيها من لعب ولهو ، واعتصمت بحبل الله المتين ، كان ذكر الله دائما على لسانها ، وفى قلبها ، فى يقظتها ونومها ، فى قيامها وجلوسها ، أنها لا تفكر فى سواه ، ولا تنشد الا رضاه . مكثت اربعين سنة لا ترفع رأسها الى السماء حياء من الله .

وكانت تقول :

ــ « ما سمعت الأذان الا ذكرت منادى يوم القيامة ، وما رأيت الثلج الا ذكرت تطاير الصحف ، وما رأيت الجراد الا ذكرت الحشر » .

انها كانت تربط فكرها بالآخرة وحدها حيث تلقى الله عز وجل ... فالمؤذن هو منادى يوم القيامة ، والثلج هو تطاير الصحف ، والجراد هو الناس يوم الحشر .

كانت رابعة تقوم الليل تناجى الله عز وجل ، وتتوسل اليه ، وتقبل عليه ، تستغفر وتتوب ، وتحزن وتبكى ، راجية رحمته ، زاجرة نفسها ، وزجر النفوس ــ أى تهذيبها ــ يحتاج الى زواجر ودروس . ولذلك « اتخذت (١) مشجب قصب طوله من الأرض قدر ذراعين عليه اكفانها كيما تتأمله على الدوام ، فتتعظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرته » وكانت اذا صلت اغرورقت عيناها بالدموع .. حتى انهم يجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء .

---

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ٣٣ .

٤ - العذراء البتول

نذرت رابعة نفســـها لله ، فلن يشغلها عنــه البيت السعيد ، والزوج الكريم والمال الوفير .

انها لا تحرم الزواج فهو سنة الاسلام وشريعة الحياة ، ولكنها لا تشعر برغبة لشيء فى الدنيا ، لقد انقطعت للتعبد ، والتهجد .. وقبل ان نستطرد فى بيان ما قيل عنها فى هذا الشأن يجدر بنـــا ان نعرف أن العزوبة كانت آنذاك شرطا من شروط الزهد والتقوى .

يقول الحسن البصرى :

« اذا اراد الله بعبد خيرا فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .

ويوضح هذا المعنى اكثر ابراهيم بن أدهم فيقول :

« من تعود أفخاذ النساء لا يفلح » .

ويبالغ فى تقرير مبدأ العزوبة مالك بن دينار فيقول :

« لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها ارملة ويأوى الى مزابل الكلاب » .

وعندما جاءت(١) رابعة ضربت بسهم وافر فى سبيل تقنين عدم الزواج عند اصحاب الطريق . ونظن انه كان لها اثرها الحـــاسم فى

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ٥٨ .

هذا التوجيه ، بعد ان كان الأمر فى الغـالب امر مزاج شخصى عنـد الحسن ورباح وابراهيم بن ادهم وغيرهم ، اذ صار بمثابة قاعدة كان من الصعب على الصوفية من بعد ذلك الخروج عنها ، وحتى انقطـع الشيخ عبد القادر الجيلانى فى الجواب فلم يحر قولا لمـا ان افحمه السائل اياه عن سبب تزوجه . ذلك لان رابعة امراة . والغـاية العظمى عند المراة فى الحياة هى الزواج ، ولذا كان له عنـد المراة اهمية كبرى اشـد بمراحل عدة من اهميته عنـد الرجل . فاذا وجدناها ، وهى المراة تحرص على عدم الزواج ، فما ابلغها من قدوة عند اهل الطريق) .

روى صاحب « تذكرة الأولياء » ان الحسن البصرى سألها :

ـ هل تتزوجين ؟

ـ الزواج ضرورى لمن له الخيار ، اما انا فلا خيار لى فى نفسى، انى لربى وفى ظل أوامره ولا قيمة لشخصى .

ـ فكيف بلغت هذه الدرجة ؟

ـ بفنائى بالكلية .

ـ انت تعرفين لماذا . اما نحن فلا يوجد لنا هذا .

واذا صرفنا النظر عن الخطأ التاريخى فى هذه القصـة ، اذ ان رابعة لم تكن فى عصر الحسن البصرى ، وقد تكون هذه المحاورة قد تمت بين سفيان الثورى ورابعة ، الا انها تبين سبب اعراضهـا عن الزواج ، اذ كانت على حال مع ربها يتعذر عليهـا معه أن تستجيب لنداء الزواج .

روى الزبيدى فى « اتحاف السادة المتقين » قال :

« خطبها عبد الواحد بن زيد مع علو شانه ، فهجرته اياما حتى شفع له اليها اخوانه ، فلما دخل عليها قالت له : يا شـهوانى اطلب شهوانية مثلك ، اى شىء رايت فى من آلة الشهوة ؟ ! » .

وروى المناوى قال :

« كتب محمد بن سليمان الهاشمى ، وكانت غلة ملكه كل يــوم ثمانين الف درهم الى كبراء أهل البصرة فى امرأة صالحة يتزوجها ، فاجمعوا على رابعة فكتب اليها :

« اما بعد : فان الله ملكنى كل يوم ثمانين الف درهم ، وانا اصيرها ومثلها ومثلها اليك ، فاجيبينى الى ما سألت » .

فكتبت اليه « اما بعد : فان الزهد فى الدنيــا راحــة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فهيء أمرك وقدم لمعــادك ، وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصم الدهر واجعل فطرك الموت .

واما انا فلو خولنى الله امثــال ما خولك واضــعافه ما سرنى أن اشتغل عن ذكر الله طرفة عين والسلام » .

وقد سألها سائل يوما :

ـ لماذا لا تتزوجين ؟

فاجابت :

ـ هناك أربعة أشياء ـ هى سبب الهم عندى ـ فاذا وجد من يخلصنى منها تزوجت .

ـ وما هى هذه الاشياء :

أولا : اذا انا مت فهل اخرج من الدنيا مسلمة ام كافرة ؟

ثانيا : اذا سألنى منكر ونكير هل اقدر على جوابهما أم لا ؟

ثالثا : هل أعطى كتابى بيمينى أم بشمالى ؟

رابعا : هل أكون فى الجنة أم فى النار ؟

ـ لا أعرف شيئا عما سألته انما علمه عند ربى .

ـ اذا كان الأمر كذلك ، وانا فى قلق من هذه الأشــياء ، فكيف احتاج الى الزوج واتفرغ له ؟

ثم انشدت :

راحتى ، يا اخوتى ، فى خلوتى — وحبيبى دائمـــا فى حضرتى
لم اجـد لى عن هواه عوضـا — وهـــواه فى البرايـــا محنتى
حيثما كنت اشاهد حســـنه — فهو محرابى ، اليـه قبـلتى
ان امت وجـــدا وما ثم رضا — وا عنائى فى الورى وا شقوتى !
يا طبيب القـــلب ياكل المنى ! — جد بوصل منك يشفى مهجتى
يا سرورى وحيـــاتى دائمـا — نشـأتى منك وايضـا نشوتى
قد هجرت الخلق جميعا أرتجى — منك وصلا ، فهو اقصى منيتى

رفضت رابعة الزواج ، لأن الزواج يتنافى مع الوفاء بالحيـــاة الروحية العالية وما تقتضيه من مجاهدات وانقطاع لله ، وانصراف عن الدنيا واماتة للشهوات وارتفاع بالمضمون الروحى الباطن بارتفاع الجانب المادى الظاهر .

يقـول العطار : انهـا ذات الخـدر الخاص ، المســتورة بستر الاخلاص ، المتقدة بنار العشق والاشـــتياق ، المتحرقة الى القرب والاحتراق ، الفانية فى الوصال ، كأنهـا مريم ثانية ، عذراء بتول صافية صفية ، انها رابعة العدوية .

٥ - المؤدبة الزاهدة

الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة .. ومتاع الغرور .. والسائرون الى الله يزهدون فى الدنيا ، ويعرضون عن مفاتنها ، احتقارا لها ، وترفعا عنها ..

يقول الشبلى : « لو كانت الدنيا لقمة فى فم طفل لرحمنا ذلك الطفل » اى لتفاهة الدنيا .

ويقول ذو النون المصرى : « الزهاد ملوك الآخرة ، وهم فقراء العارفين » .

ويقول الامام احمد ، الزهد على ثلاثة أوجه :

« ترك الحرام وهو زهد العوام ، والثانى ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين » .

وقد زهدت رابعة فى الدنيا ، لأنها تنشد البقاء والخلود ؟

تقول رابعة : « لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا ؟ فلما سئلت عن معنى ذلك ، قالت : لأنها تفنى » والزهد فى الدنيا جهاد

شاق ، وصبر كريم ، ورابعة من فجر حياتها الباكر كانت ملهمـــة الايمان ، وبالتالى كانت زاهدة زهدا كاملا ، درجت عليـــه ورضعته مع البان الطفولة وتذوقته مع اشراقة الحياة الأولى ، وعاشت به فى بواكير الشباب .

جاء أمير البصرة الى رابعة يعودها وقد حمل اليها اموالا كثيرة وسألها ان تستعين بها على حيـــاتها ، فبكت ثم رفعت رأسها الى السماء ثم قالت :

ــ هو يعلم انى أستحى منه ان أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف آخذها ممن لم يملكها . وحذرت امير البصرة ان يعود الى مثلها » .

ان الدنيا ليست فى فكر رابعة ، حتى انها لتستحى ان تسأل الله عز وجل الدنيا بأسرها لأنها لا تساوى جناح بعوضة ، فكيف تسأل العباد ؟ بل كيف تقبل شيئا من العبيد ! ؟

واقبل سفيان ليزور رابعة فراى على بابها تاجرا يبدو عليه التردد فسأله عن حاجته ، فقال الرجل :

ــ احضرت كيسا من الذهب لرابعة ، واننى مضطرب لا أدرى اتقبله ام ترفضه ، فادخل بالله وانقذنى من هذا الاحراج .

فدخل سفيان واخبرها امر الرجل فقالت :

ــ ان الله يرزق عباده حتى الذين هم عنه لاهون ، فما بالك بمن يكون فى سويداء قلبه محبة يقف دونهـــا الحصر ، لفاطر السموات عز وجل .

حررت رابعة نفسها من عبودية الدنيا ، وحلقت بأجنحة الورع الصادق فى سماء المعرفة ، انها تعـــلم أن الرازق هو الله جل جلاله وانه ســـبحانه يرزق كل حى حتى العصـــاه ، فما بالك بالمحبين العـــابدين .

وإذا كان الله العلى القدير هو الرازق المتكفل بعبـاده جميعا ، فكيف تقبلّ رابعة هدية أو مساعدة أو معونة من عبد من عبيده ؟

انها متوكلة على الله مؤمنة ايمانا عميقـا بأن رزقها المقدر ، المفروض ، سيأتيها كاملا غير منقوص ، وأهون الأشياء على المؤمنين، أمر الأرزاق ، بل أمر الدنيا بأسرها . يحكى أنها صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول طعـاما أو تنام ، منقطعة الى الصلاة وفى الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمارة بالسوء وهى تنوح :

ـ يا رابعة ! الى متى تعذبيننى هكذا دون ما هوادة ؟

وخلال هذا الحديث النفسي سمعت صوت طرق على الباب . ففتحت رابعـة . فاذا برجل فى يده اناء ممتلىء بالطعـام ، تركه وانصرف . فأخذته رابعة ووضعته فى زاوية من الغرفة وتشاغلت باصلاح المصباح فأتى قط ، واكل كل ما فى الاناء . فلما عادت رابعة وجدت الاناء خاويا ، فقالت فى نفسها :

ـ لا بأس أفطر على الماء .

فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح . فعادت ورفعت الجـرة للشرب ، لكنها سقطت من يديها وانكسرت . فـلم تطق احتمالا ، فقالت :

ـ الهى ! ماذا اردت بهذه المسكينة ؟

فسمعت صوتا يقول :

ـ لو شئت يا رابعة وهبنا لك ما فى الدنيا ، ومحونا ما فى قلبك من نار العشق ، لأن قلبا مشغولا بحب الله لا يشغل بحب الدنيا . فقالت رابعة :

ـ لما سمعت أنى أخاطب على هذا النحو ، نزعت من قلبى كل

تعلق بأمور الدنيا ، وصرفت نظرى عن كل الدنيويات . وهأنذا قد امضيت ثلاثين عاما لم أصل فيها دون أن أقول هذه الصلاة ـ لعلها تكون آخر صلواتى ـ ولم أمل من تكرار هذا القول : « الهى اغرقنى فى حبك حتى لا يشغلنى شيء عنك ! » .

كانت رابعة تنام على حصيرة بالية ، وكان موضع الوسادة قطعة من الآجر ، وكانت تشرب من اناء مكسور ، وتطوى ليلها مسهدة ، تصلى لله وتناجيه :

وزادى قليل ما أراه مبلغى
اللزاد أبكى أم لطول مسافتى
اتحرقنى بالنار يا غاية المنى
فأين رجائى فيك أين مخافتى

ورابعة تعرف ان الدنيا لا قيمة لها ، فهى فانية .. وأن السلامة فى ترك ما فى الدنيا .

قال جعفر بن سليمان : اخذ بيدى سفيان الثورى ، وقال :

ـ مر بنا الى المؤدبة التى لا أجد من استريح اليه اذا فارقتها . فلما دخلنا عليها ، رفع سفيان يديه وقال :

ـ اللهم انى أسألك السلامة .

فما كان من رابعة حين سمعت هذا الدعاء الا ان بكت ، وتعجب سفيان من بكائها فسألها :

ـ ما يبكيك يا رابعة ؟

ـ أنت السبب .. لقد عرضتنى للبكاء . أما علمت أن السلامة من الدنيا ، ترك ما فيها فكيف وأنت متلطخ بها ؟

فقال سفيان ! واحزناه .

فقالت رابعة :

ــ لا تكذب ، قل : واقلة حزناه ! لو كنت محزونا ما هنأك العيش يا سفيان ــ انما انت أيام معدودة ، فاذا ذهب يوم ، ذهب بعضك ، ويوشك اذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل .

ارادت أن ترشد الى طريق الخير والسلامة ، وهو لا يتحقق بمجرد الدعاء ، ولكن بالأخذ بالأسباب ، وأهمها الاعراض عن الدنيا .. وما كانت فتنة المسلمين وذلتهم الا من حبهم للدنيا وتكالبهم على متاعها .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« توشك الأمم ان تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل :

ــ من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال :

ــ لا . بل انتم يومئــذ كثير ، ولكنكم غثــاء كغثــاء السيل ، ولينزعن الله من صدور اعدائكم المهابة منكم ، وليقــذفن فى قلوبكم الوهن .

قيل : وما الوهن ؟

قال :

ــ حب الدنيا وكراهة الموت » .

برزت رابعة بزهدها فى عصر متــالق بالفتــح والاقبــال على الحضارة والمعرفة ، عصر كانت نساؤه متفتحات للحياة الجديدة ، مرحات مفتيقات بنعمى الحيــاة ومباهج الدنيــا وزينتها ، اما هى ــ رابعة ــ فعزفت عن هذا كله وقد أتيح لها وعرض عليها ، لكنهــا فضلت ما هو أبقى وأسمى ..

دخل عليها رباح القيسى وصالح بن عبد الجليل وكلاب . فتذاكروا الدنيا فاقبلوا يذمونها فقالت رابعة :

ـ انى لارى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم !

قالوا :

ـ ومن أين توهمت علينا ؟

قالت :

ـ انكم نظرتم الى اقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

وروى المناوى (١) قال : ذم بعضهم الدنيا عندها فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من احب شيئا اكثر من ذكره ، ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم ، اذ لو كنتم غرقى فى غيرها ما ذكرتموها » . تقول لرباح وصحبه وهم يذمون الدنيا انها بترابيعها فى قلوبكم ، لانكم نظرتم الى اقرب الاشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

وانها للفتة ذكية من رابعة تتفق مع احدث نظريات علم النفس تشتغل القلوب باقرب الاشياء الى هواها فتكثر من ذكره ، وتقنع النفس باقنعة البغض او الذم ، وما الى البغض والذم من اقنعة تتوارى خلفها الشهوات والرغبات .

صورت رابعة وظيفة المؤمن فى الحياة ، فى صورة واضحة القسمات ، يوم سألها متفلسف :

ـ من أين أتيت ؟

ـ من العالم الآخر .

ـ والى أين تذهبين ؟

---

(١) الكواكب الدرية ج ١ ، ص ٢٠٢ .

ـــ الى العالم الآخر .

ـــ وماذا تفعلين فى الدنيا ؟

ـــ اعبث بها .

ـــ وكيف تعبثين بها ؟

ـــ آكل خبزها واعمل عمل الآخرة .

لقد رسمت رابعة سبيل الصالحين فى الحياة ، كلوا خبز الدنيا ، وعملوا للآخرة ، فالدنيا عندها تسخرها فى سبيل الآخرة ، تأخذ منها خيرها فقط ، ولا تعمل فيها الا عمل الآخرة .

ان وظيفة المؤمن فى الحياة ليست انقطاعا للتعبد والنسك ، وليست اقبالا على جمع المال فى الدنيا فحسب ، بل ان وظيفة المؤمن فى الدنيا هى عبادة الله .. عبادته جل شأنه فى كل عمل يقوم به ، وفى كل حركة من حركاته ، بمعنى وجوب مراقبة الله فى كل هذه الاعمال وانه يقوم بها تقربا اليه : فيعبده فى صيامه وصلاته وزكاته وحجه .. ويعبده فيما يقوم به من عمل صناعة كان او تجارة أو غير ذلك من ألوان العمل .. وبمعنى آخر على المؤمن الحق أن يحيا فى الدنيا بوجدان حى ، ويقظة روحية مضيئة ، فيجعل من كلّ عمل دنيوى عملا روحيا يسمو به ويصقله ، ويطبعه بميسم الخير ، وبهذا لا تتعطل الحياة البشرية ، ولا تتعثر المواكب الانسانية ولا تهبط الى درك المادية العمياء ولا تستعبد لرق روحى معطل .

فيقظة الروح أو القلب هى السبيل الذى رسمته رابعة للسلوك فى الحياة : فقد قالت : « ليس من المستطاع ان نميز بالنظر بين المقامات المختلفة فى الطريق الى الله ، ولا ان نصل اليه باللسان ، فلتجعل قلبك مستيقظا ، فاذا استيقظ رايت بعيونه الطريق وكان فى وسعك بلوغ المقام » .

ان يقظة القلب ، اول خطوة للايمان ، منهـا تسطع اضـواء المعرفة ، وعليها اقيمت مراقى السعادة الحقة .

سالها احدهم :

ـ انى قد اكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب على ؟

فقالت رابعة :

ـ لا بل لو تاب عليك لتبت .

ان رابعة لم تكن تدعو الى عدم التوبة او اليأس منها ، ولكنها كانت ترى ان الانسان لا يحظى بالتوبة اذا استغفر لذنبه فحسب ، بل عليه ان يجاهد نفسه ، ليظفر برضى الله ، بعـد أن يتجرد من الخطايا ، تجردا تاما . فالاستغفار وحده دون الانسلاخ من أسباب المؤاخذة والمعصية لا يكون صادقا ما لم يقترن بالعمل الصـالح ، وسلوك سوى يؤكد العزم ، وقد دار على لسان رابعة كثير من التعبير الرمزى الذى يحتاج الى امعان الفكر مثل قولها :

ـ « استغفارنا يحتاج الى استغفار لعـدم الصـدق فيه » او قولها :

ـ « استغفر الله من قلة صدقى فى قولى استغفر الله » .

هذا التشدد فى الاستغفار ، والالحاح فى التماس التوبة دليل واضح على صدق العقيدة والايمان العميق .

والتوبة الوان : فتوبة العوام من الذنوب ، وتوبة الواصلين من الخواطر ، وتوبة العارفين من السوانح ، وتوبة المحبين من العجز على القيام بحق المحبوب .

روى القشيرى ان صالحا المرى كان يكثر من قوله :

ـ من ادمن قرع باب يوشك ان يفتح له .

فقالت له رابعة :

ــ الى متى تقول هذا ؟ متى اغلق هذا الباب حتى يستفتح !

فقال صالح :

ــ شيخ جهل وامراة علمت .

ان ابواب الله جميعا مفتوحة غير مغلقة . يقــول الله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ، وانيبوا الى ربكم وأسلموا له »

والتوبة الحق فضل من الله وتوفيق . والتوبة هى مجاهدة النفس للصدق والانابة ، فان الانسان حينما يسمو من درجة النفس الأمارة بالسوء ، ينتقل الى درجة النفس اللوامة ، التى تندم وتقر بالخطيئة وتعترف بالذنب وتتوب استجابة لقوله تعالى : « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون » فالتوبة الصادقة نبضة الايمان الحى .

٦- فى مراقى الصفاء الروحى

رابعة العدوية .. ذات القلب الكبير الذى وسع أنبل المشاعر ، واقدس عشق عرفه الوجود .. كيف وصلت الى أعلى درجات الصفاء الروحى ؟

زهدت فى الدنيا ومتاعها وزخرفها ، والزهد على ثلاثة أوجه ـ كما يقول الامام احمد :

« ترك الحرام وهو زهد العــوام ، والثانى ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص ، والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين » .

فزهد العارفين على هذا النسق ، تصــعيد وتحليق روحانى مشرق منير ، انهم يعتبرون الخواطر والسوانح التى تمر بهم وهى غير مطبوعة بالطابع الربانى ، نقصا فى زهدهم فى الدنيا وما فيها ، ويعتبرون كل تفكير يبعد بهم عن ربهم وموجدهم خروجا عن دائرة زهدهم وعبادتهم ، واقبالا على الدنيا التى باعوها واشتروا بها محبة الله ومعرفته والعيش تحت ظلال انسه ، وفى حضرة قربه .

ورابعة هى اول من نقل الزهد الى الأفق الصوفى الاســلامى ، وهى أول من حول الزهد من الخوف الى الحب ، ومن الرعب الى المعرفة ، ومن الحرمان الى الرضا ، ومن القسوة الى الاشراق ،

وهى أول من جعلته شرعة ذات الوان روحية ، واهداف وجدانية ، واطلقت فيه تيار التسامى والتصعيد ، والتحليق الى الأفق الأعلى (١) .

وقد روى لنا ابو القاسم النيسابورى قصص الكثيرين ممن فقدوا ضبط تفكيرهم ، لانهم اجهدوا انفسهم فى عبادات اتلفت اعصابهم ، ومن هؤلاء حيونة التى كانت صديقة لرابعة وقد زارتها يوما وباتت عندها ، فلما مضى هزيع من الليل اخذ الكرى بجفون رابعة واغمضت عينيها اذ غلبها النوم ، فهبت حيونة نحوها وكانتا تتهجدان معا فركلتها برجلها وايقظتها زاجرة قائلة :

ـ قومى يا رابعة ، قد جاء عرس المهتدين ، يا من زين عرائس الليل بنور التهجد ! (٢) .

وقد ذكر النيسابورى خبر هذه المتعبدة صديقة رابعة فقال : ان حيونة وقفت يوما بعبد الواحد بن زيد الذى خطب رابعة وكان من الوالهين الزاهدين نادته متهكمة :

ـ يا متكلم ، تكلم عن نفسك ، والله لو مت ما تبعت جنازتك .

فسألها :

ـ ولماذا يا حيونة ؟

فأجابت :

ـ انك كثير الكلام على الخليقة وتتقرب اليهم ، ما شبهتك الا بمعلم صبى ، علم ان يحفظ بالعشى ، فاذا بكر فى بيت امه نسى ما حفظ ، حتى يحتاج المعلم الى ضربه ، اذهب يا عبد الواحد .. اضرب نفسك بدرة الأدب وتزود زاد القناعة واجعل حظك مما انت فيه الكلام على نفسك ثم تكلم عن الخليقة .

فلما سمع عبد الواحد كلام حيونة تعرق جبينه خجلا ومضى فى طريقه صامتا ، وقد اقام عاما لا يتحدث الى الناس ..

(١) طه عبد الباقى سرور : رابعة العدوية ص ١٠٥ .

(٢) ابو القاسم النيسابورى عقلاء المجانين ص ١٢٨ .

ان رابعة ، رغم توغلها فى هذا الخضم العظيم ، احتفظت برجاحة عقلها وايمانها ، لانها كانت تعرف كيف تفكر ، وكانت تعرف الى أين تسير .. ولذلك عدها الشيخ فريد العطار موازية لكبار العارفين فى عصرها ومما قال عنها : « اذا كنا اخذنا عن عائشة أم المؤمنين نصف الدين فلا بدع اذا تلقينا عن رابعة العدوية وهى التى جاءت بعدها ولم تكن عالمة فى الحديث والفقه مثلها ــ الموعظة البالغة والمجاهدة الخالصة والمعرفة الثاقبة ، فهى احدوثة للناس اذ ظهر منها ما عجز دونه الرجال وسبقت اليه ، فكان مذهبا عجيبا فى الحياة الروحية اقامته على قواعد المعرفة حسب مصطلح التصوف فى عصرها من العارفين ، وطبقة العارفين هؤلاء ، درجة علمية صوفية ، لا يرقى اليها الا من أوتى البصيرة النافذة والصفاء الروحى والصدق فى الدين ، وكل هذه الصفات توافرت فى رابعة وجعلتها من اصحاب هذه الدرجة ، ان لم تكن ابتدعتها وسبقت اليها . فالمعرفة الالهية لا بد لها من قلب ذكى سليم من الزيغ وتفتح للعلم لتلقى الكشف الحى وتلمس الحقائق الشفافة التى لا تخضع للمس المادى والرؤية العينية » .

لقد كان التصوف منذ الحسن البصرى ، حتى رابعة لا يخرج عن دائرة الزهد والنسك ، ولكن رابعة جاءت وغرست فى روضة التصوف ، زهرة جديدة ، زهرة الحب الالهى ..

بدات رابعة حياتها ، بأداء فرائض الله ، وحفظ القرآن ، فلما استرقت وذاقت آلام الرق ، لم تجد ملجأ امامها سوى الله الرحمن الرحيم ، فأخذت تتقرب اليه بالتعبد والتهجد ، ولم تقابل كل ما لاقت من عذاب غليظ الا بالرضا بقضاء الله .

كانت تراقب الله عز وجل فى كل عمل تقدم عليه ، ومقام المراقبة هو مقام الاحسان الذى جاء ذكره فى الحديث الشريف :

« والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

فلما استغرقت رابعة فى مقام المراقبة ، افاض الله عليها بالمعرفة وصعدت رابعة من درجة الرضا الى درجة المحبة . .

وقد تحدثنا عن رابعة وزهدها وعبادتها ، وهى الدرجة الأولى من مدارج رقيها الروحى ، وقد رويت عن زهدها قصص كثيرة :

ذات مرة جاء تاجر غنى لزيارة رابعة فراى بيتها وهو يتداعى ، فأعطاها الف درهم من الذهب وأهداها بيتا جديدا ، فذهبت رابعة الى البيت ولم تكد تستقر فيه حتى استغرقت فى تأمل الصور التى فيه ، فقالت فى الحال وهى تعيد الى التاجر الألف درهم من الذهب : « اخشى أن يتعلق قلبى بهذا البيت فلا يعود فى استطاعتى ان اشغل نفسى بعمل الآخرة . ان كل رغبتى ان افرغ لعبادة الله تعالى » .

واقبل سفيان الثورى ليزورها يوما ، فراى على بابها تاجرا يبدو عليه التردد ، فسـألـه عن حاجتـه فقال الرجل : « احضرت كيسا من الذهب لرابعة ، وانني مضطرب لا ادرى أتقبله أم ترفضه ، فادخل بالله وانقذنى من هذا الاحراج » فدخل سفيان واخبرها أمر الرجل فقالت : « ان الله يرزق عباده حتى الذين هم عنه لاهون ، فما بالك بمن يكون فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل » .

واذا كانت رابعة رفضت مثل هذه الهدية ، لتبين انها معتمدة على الله ، الا أن هذا الرفض كان يرجع الى حكمـة اخرى ، رواها فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء ، ولكنه ذكر الحسن البصرى بدلا من سفيان الثورى . فقد قال عن الحسن البصرى .

ذهبت يوما الى رابعة اسأل عن اخبار مرضها ، فرايت تاجرا يبكى ، فسألته ما يبكيك ؟ فأجاب : اتيت الى رابعـة بهذا الكيس من الذهب ، واخشى ان لا تقبله ، فاذهب انت واطلب منها ان تقبله لعلها تفعل . فدخلت على رابعة — هكذا قال الحسن — ولم أكد اخبرها بهذا الذى قاله التاجر حتى نظرت الى بمؤخر عينها وقالت : انك أيها الحسن تعرف تماما أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون

له ، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حبا لجلاله ، وهو يرزق من يسبه ، افلا يرزق من يحبه . وانا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق والآن ! ! فكيف اقبل المال من انسان ونحن لا نعلم اهو حلال ام حرام ؟ ! ثم قالت : ذات يوم وضع فى المصباح زيت من بيت السلطان ، ورفوت ثوبى الممزق على ضوء المصباح ، فظل قلبى طوال ايام مغمورا بالظلمة ، ولم يضىء الا حينما شققت الثوب الذى رفوته ، فاعتذر لهذا التاجر ، ودعه يذهب (١) .

وارتفعت رابعة من درجة الزهد الى درجة الرضا ، والنفس الراضية ، هى النفس السامية التى ترضى بما قسم الله ، وترضى بقضائه وقدره ، وتحسن الظن به وبتصاريفه .

ومن دعاء الرسول الكريم : « اللهم اسألك الرضا بعد القضاء » بهذه النفس الراضية آمنت رابعة ودعت اليها .

سئلت رابعة يوما :

ــ متى يكون العبد راضيا ؟

قالت : اذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وسمعت يوما رجلا من العباد يهتف : « اللهم ارض عنى » .

فقالت له رابعة : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك .

قال : وكيف ارضى عن الله ؟

قالت : يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة ، لان كليهما من عند الله .

وذات يوم سألها سفيان الثورى ؟

ــ رابعة ، ماذا يود قلبك ؟

(١) تذكرة الاولياء : ص ٦٧ .

ولعله شاء أن يسألها عما تشتهى نفسها من المأكل ، فاجابت :

ــ كيف تسألنى هذا يا سفيان وانت اعلم الناس بى ؟ ان الله يعلم ان قلبى هفا منذ اثنى عشر عاما الى البلح وهو موفور بالبصرة، لكننى لم آكل منه حتى اليوم : ولست الا عبدة لله ، فليس لى أن اتصرف وفق أهواء قلبى ، لانى اذا اردت أنا ولم يرد خالقى كان هذا منى جحودا .

فأذعن سفيان لرأيها وقال لها :

ــ ليكن يا رابعة لست بقادر على أن احدثك بشؤونك فحدثينى انت بشؤونى ..
فتبسمت رابعة وقالت :
ــ لولا ميلك الى هذه الدنيا لكنت رجلا لا غبار عليك !

فخجل سفيان واطرق حزينا ثم رفع راسه باكيا وقال :
ــ الهى ! ليتك ترضى عنى !

فعادت رابعة الى التهكم وقالت لسفيان :

ــ ألا تخجل من أن تقول لله : ليتك ترضى عنى دون ان تفعل شيئا لرضاه .

ووقع الجراد على زرع لها ، فأكله . فابتسمت ونظرت الى السماء هاتفة : الهى .. رزقى عندك ، فما انقصنى الجراد شيئا ولا سلبنى رزقا ، وانما هو قضاؤك والرزق عندك .

ثم صعدت رابعة من درجة الرضا الى درجة المراقبة والاحسان . كانت تعبد الله ، واحساسها كله انها بين يدى الله ، تراه ، أو كأنها تراه ، وهو يراها .

كانت رابعة ترى الله معها فى كل مكان ، فقد طلبت منها صديقتها عبدة فى يوم من أيام الربيع المشرقة أن تخرج لتتامل آثار قدرة الله ، فقالت لها رابعة : بل ادخلى انت وتعالى وتاملى القدرة

فى نفسك واضافت رابعة : ان مهمتى انا هى ان اتأمل القــدرة ». فرؤية الله ، هى رؤية قدرته وآثاره ، وهذا ما عناه على بن ابى طالب كرم الله وجهه حينما سئل :

ـ هل نرى ربنا ؟

فقال : وكيف نعبد من لا نراه !؟

وهذا هو نفس المعنى الذى رددته رابعة ، فقد سئلت :

ـ اترين من تعبدينه ؟

فاجابت :

ـ لو كنت لا اراه ما عبدته ».

ان رابعة ترى قدرة الله فى كل شىء ، بل انها ترى الله عز وجل فى كل شىء ، وانه تبارك وتعالى معها اينما كانت ، وان قدرته لواضحة جلية ، سواء تأمل العبد آثارها فى نفسه او فى آفاق السموات أو ملكوت الارض ».

قال لرابعة رجل اعجب بمنطقها :

ـ انك لتصحلين لحراسة رباط ؟

فقالت :

ـ انى حارسة رباط فعلا ، احفظ داخلى وخارجى ، واحافظ على قلبى .

واخيرا صعدت رابعــة الى درجة الحب الســامى .. الحب الالهى ».

٧- الحب الإلهى

الحب وهج الايمان المتقد وصدى العقيدة الكامنة فى القلوب ، تلبية لنداء الله وفزعا من قول الحق تبارك وتعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى أمر الله » .

اذا أعرض الناس عن الله ، وعن حب الله ، وفضلوا عليه أى شىء فى الوجود ، فليتربصوا حتى يأتى الله بأمره « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وقد تكلم (١) الناس فى أصل المحبة فى اللغة . فبعضهم قال : الحب اسم لصفاء المودة ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها « حبب الأسنان » .

---

(١) الرسالة القشيرية : ج ٢ ، ص ٦٢٥ « تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف » .

وقيل : الحباب ما يعلو المـاء عند المطر الشديد ، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثورانه عند العطش والاهتياج الى لقاء المحبوب

وقيل : انه مشتق من حباب الماء (بفتح الحاء) وهو معظمه فسمى بذلك ، لان المحبة غاية معظم ما فى القلب من مهمات .

وقيل : اشتقاقه من اللزوم والثبات ، يقال احب البعير ، وهو ان يبرك فلا يقوم فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه .

وقيل : الحب مأخوذ من الحب ، وهو القرط ، وسمى القرط « حبا » اما للزومه للاذن ، او لقلقه ، وكلا المعنيين صحيح فى الحب .

وقيل : هو مأخوذ من الحب « جمع حبة » وحبة القلب ، ما به قوامه فسمى الحب حبا باسم محله .

وقيل : هو مأخوذ من الحبة « بكسر الحاء » وهى بذور الصحراء فسمى الحب حبا ، لانه لباب الحياة ، كما ان الحب لباب النبات

وقيل : الحب هو الخشبات الاربع التى توضع عليها الجرة ، فسمينت المحبة حبا لانه يتحمل عن محبوبه كل عز وذل .

وقيل : هو من الحب الذى فيه المـاء ، لانه يمسك ما فيـه ، فلا يسع فيه غير ما امتـلأ به ، كذلك اذا امتـلأ القلب بالحب فلا مساغ فيه لغير محبوبه .

وقد جرت مسألة فى المحبة ، بمكة ايام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها . وكان الجنيد اصغرهم سنا ، فقالوا له : هات ما عندك يا عراقى ، فاطرق راسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم باداء حقوقه ، ناظر اليه بقلبه ، احرق قلبـه انوار هويتـه ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف

له الجبار عن استار غيبه ، فان تكلم فبالله ، وان نطق فعن الله ، وان تحرك فبأمر الله ، وان سكن فمع الله ، فهو بالله : ولله . ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد . جبرك الله يا تاج العارفين .

والمحبة لا تحصل الا بعد اليقين ، ولذلك كان أكمل الخلق فى المحبة رسول الهدى ، حتى أن العرب كانت تقول عنه صلى الله عليه وسلم « محمد عشق ربه » وكان عليه السلام يسأل ربه ويدعوه : « اللهم اجعل حبك أحب الأشياء : وخشيتك اخوف الأشياء عندى واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك واذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فأقرر عينى فى عبادتك » .

وقد أوضح الرسول العظيم ان الحب هو السبيل الى تذوق الايمان ، فقال :

« ثلاث من كن فيه ، وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما : وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر ، كما يكره أن يقذف فى النار » .

يقول الامام الغزالى : ان المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، وانه ما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها ، وذلك كالشوق والأنس والرضا ، ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد .

وحب الانسان لله ليس حبا واحدا ، ولا من رتبة واحدة فى شرف الموضوع ، ونبل الغاية ، وانما هو حبان بعضهما خير واسمى من بعض :

حب يستشعره المحب فى قلبه ، ويقبل فيه على محبوبه ، لأن هذا المحبوب قد خصه بآلائه ونعمائه ، فهو لا يسعه الا أن يقابل احسانه عليه بهذه النعماء ، وانعامه عليه بتلك الآلاء ، بحبه له ، واقباله عليه ، وحب يتخذ فيه العبد المحب موضوعه من المحسن المنعم ذاته ، لا من الانعام ولا من الاحسان ، فهو قد غلب عليه حب الله لذاته ، لا خوفا من عقابه ولا طمعا فى ثوابه ، بل ابتغاء لوجهه . والمحب هنا يخلى قلبه من كل خوف وكل طمع ، ويصرف قلبه عن الاشتغال بأى احسان اليه ، أو انعام عليه بأى حظ من حظوظ الحياتين الدنيا والآخرى ، لأنه يعد الاشتغال بهذا كله أو بعضه صارفا له عن وجه ربه ، وحجابا بينه وبين محبوبه ، وليس من شك فى أن أصفى الحبين واعلاهما ، هو هذا الحب الذى يبرأ فيه قلب المحب من رغبات النفس ، وشهوات الحس ، ونزوات الهوى ، وغيرها من حظوظ العاجلة والآجلة التى من شأنها أن تفسد على الانسان حياته الروحية الخالصة التى ينبغى أن يحياها — على حد وصف الجنيد للمحب الالهى الصادق — عبدا ذاهبا عن نفسه ، متصلا بذكر ربه ، قائما باداء حقوقه ، ناظرا اليه بقلبه ، فلا يكون بشىء الا بالله ، ولا لشىء الا لله ، ولا مع شىء الا مع الله (١) .

يقول سمنون : ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « المرء مع من أحب : فهم مع الله تعالى » .

---

(١) د . محمد مصطفى حلمى : الحب الالهى فى التصوف الاسلامى ص ٣٦ — ٣٧

ويتحدث ابو الحسن الشاذلى عن المحبة فيقول : « المحبة آخذة من الله لقب عبده عن كل شيء سواه . فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته ، والروح مأخوذة فى حضرته ، والسر مغمورا فى مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزداد ، ويفاتح بما هو اعذب من لذيذ مناجاته ليكسى حلل التقريب على بساطة القربة ويمس ابكار الحقائق وثيبات العلوم »

ويقول ابن القيم فى كتابه « طريق الهجرتين » : « انهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله . وعمرت بمحبته وخشيته واجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة فى اجزائهم ، فلم يبق فيهم عرق ولا مفصل الا وقد دخله الحب . قد انساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم انسهم به عن سواه .

قد فنوا بحبه عن حب سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة اليه ، والرهبة منه ، والتوكل عليه والانابة اليه ، والسكون اليه ، والتذلل والانكسار بين يديه ، عن تعلق ذلك منهم بغيره فاذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت انفاسه الى ربه ومولاه . واجتمع همه عليه ، متذكرا صفاته العلا واسماءه الحسنى ، شاهدا له فى أسمائه وصفاته . قد تجلت على قلبه انوارها فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته فبات جسمه فى فراشة يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد آوى الى مولاه وحبيبه فآوى اليه ، واسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرا من جهة من جهاته فيالها من سجدة ما أشرفها من سجدة : لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع فى سفره اليه

بداء الاكوان وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ولا سكن عند علم حتى دخل على ربه فى داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله ، فاذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهدا لقلبه ، انسته ذكر غيره ، وشغلته عن حب سواه ، وحديث دواعي قلبه الى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه ، فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت عرش الرحمن » .

وأهل المحبة ـ كما يقول ابو النصر السراج ـ على ثلاثة احوال :

١ ـ الحال الأول من المحبة محبة العامة ، يتولد ذلك من احسان الله تعالى اليهم وعطفه عليهم ، وقد روى عن الرسول الكريم انه قال : « جبلت القلوب على حب من احسن اليها وبغض من أساء اليها » .

وفى هذا الحال يسوق « السراج » تعريف « سهل بن عبد الله » للمحبة بأنه : « موافقة القلوب لله ، والتزام الموافقة عليه ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم مع دوام الاستمرار بذكر الله تعالى ، ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل » .

٢ ـ والحال الثانى من المحبة وهو يتولد من نظر القلب الى غناء الله ، وجلاله ، وعظمته ، وعلمه ، وقدرته ، وهو حب الصادقين والمتحققين .

وفى هذا الحال يسوق « السراج » تعريف « ابراهيم الخواص » للمحبة بأنه « محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات »

٣ — والحال الثالث من المحبة فهو محبة الصديقين والعارفين تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة فكذلك احبوه بلا علة .

وقد أوحى الله عز وجل الى داود عليه السلام : « لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى الى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا الى ، وتقطعت أوصالهم من محبتى » . ان المحب اذا وصل الى مقام الشوق ، يقوى شوقه فيصبح صبابة ووجدا ، فاذا ذكر اسم من أسماء الله الحسنى ، ارتعشت أوصال المحب ، وتأججت فى قلبه نار الشوق ، وطلبت الروح التلاقى والمواصلة : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » . ان الوجد حالة تسيطر فيها الروح على الجسد سيطرة تامة . . انه استغراق تام فى نشوة علوية ، ومن ذا يستطيع أن يتصوره ؟ وكيف السبيل الى وصفه ؟ وهل تستطيع أن تتذوق ما لم تذقه ؟ وما تذوقه غيرك مهما أوتى من روعة بيان ودقة فى التصوير ؟

روت كتب الصحاح حالة من حالات وجد الرسول الكريم بالله ؛ فقالت ان عائشة رضى الله عنها دخلت عليه الصلاة والسلام وهو فى حالة من تلك الحالات ، فلما رآها سألها : من انت ؟ قالت : عائشة . فسألها النبى ثانية : من عائشة ؟ فأجابت : ابنة الصديق . فسألها النبى ثالثة : من الصديق ؟ فكان الجواب : حمو محمد . فسألها : ومن محمد ؟ فلزمت الصمت لأنها علمت أن النبى صلى الله

عليه وسلم فى حالة استغرق فيها الوجد والحب لرب العالمين (١) .

وحين يزداد الشوق والوجد ، يرتقى المحب الى درجة الفناء . حتى فى الله يفنى ، وبالله يبقى . والفناء هنا ليس فناءا ماديا ، ولكنه فناء معنوى ، فناء فى محبة الله ، فناء فى صفات الخالق . فناء تغيب به الأكوان والأحداث عن ناظريه ، لأنه لا يرى الا ربه الحبيب القريب ، فتتوارى عنه المحن والآلام ، ولا يشعر بشىء .. انه لا يشعر الا بالله ، وقد غاب عن وعيه كل شىء الا وجدان الهيام بالمحبوب الأعظم (٢) .

وقد يثير هذا القول دهشة القارىء العزيز ، ولكن الم يرو لنا القرآن المجيد قصة امراة العزيز وصويحبات يوسف عليه السلام ، اللواتى قطعن ايديهن ؟ فاستغراقهن فى لذة النظر الى يوسف ، غيبهن عن الم ما دخل عليهن من قطع ايديهن .

وقد آلت رابعة الى هذه الحال ، فقد ذكر انها كانت فى الصلاة فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها ، فلم تشعر بها حتى انصرفت من الصلاة .

وفى يوم ضرب رأسها ركن جدار ، فأدماه ، فلم تلتفت لذلك . فقيل لها :

— ما تحسين بالألم ؟

— شغلى بموافقة مراده فيما جرى شغلنى عن الاحساس بما ترون .

---

(١) طه عبد الباقى سرور : شخصيات صوفية ص ٧٧ .
(٢) محمد عطية خميس : رابعة العدوية ، ص ٨٧ .

كانت رابعة تحلق فى سماء الحب الالهى ..

ولعل من خير ما وصف به حال رابعة ، ما ورد فى كتاب « شرح حال الأولياء » لعز الدين بن عبد السلام ، من أنه قيل لرابعة : كيف رايت المحبة ؟

فقالت : « ليس للمحب وحبيبه بين ، وانما هو نطق عن شوق ، ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف . وكيف تصف شيئا انت فى حضرته غائب ، وبوجوده ذائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان !.. فما ثم الا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، واسرار كاتمة ، واجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة ، فى القلوب حاكمة » .

ثم قيل لها بعد ذلك :

« يا رابعة ! فانت فى ميدان المحبة رائعة ، فكيف كانت سورة الواقعة ، حتى سميت رابعة » ؟

فقالت :

كاسى وخمرى والنديم : ثلاثة
وأنا المشوقة فى المحبة : رابعة
كأس المسرة والنعيم يديرها
ساقى المدام على المدى متتابعة
فاذا نظرت فلا أرى الا له
واذا حضرت فلا أرى الا معه

يا عاذلى ! انى احب جمـــــاله
تا الله ما اذنى لعــــذلك سـامعه
كم بت من حرقى وفرط تعــلقى
اجرى عيونا فى عيـــونى الدامعــة
لا عبــرتى ترقا ، ولا وصـــلى له
يبقى ولا عينى القريحـة هاجعــة

وهذه الصورة الشعرية وان كانت تبين مذهب رابعة فى الحب الالهى الا ان الأبيات المأثورة عن رابعة نفسها لا شك أنها تعبر عن حبها اصدق تعبير . فهى قد اشتاقت الى الله فأقبلت عليه ، واحبت الله فطلبت القرب منه ، وعاينت جمال الله فأنست به ، وفرغت قلبها لله فلم تشتغل بما هو دونه .

تقول رابعة :

احبــك حبـــين : حب الهـــوى
وحبـــا لأنك اهـــل لـــذاكا
فاما الذى هو حب الهــــوى
فشـــغلى بذكرك عمن ســـواكا
واما الذى انت أهـــل لـــه
فكشفك لى الحجب حتى اراكا
فلا الحمــــد فى ذا ، ولا ذاك لى
ولكن لك الحمـــد فى ذا وذاكا

واقدم من شرح هذه الابيات أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » يقول : « فأما قولها « حب الهوى » وقولها « حب أنت اهل له »

وتفريقها بين الحبين فانه يحتاج الى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ويخبره من لم يشهده ، وفى تسميته ونعت وصفه انكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له منه ، ولا قدر له به .

ولكنا نجمل ذلك وندل عليه من عرفه :

معنى حب الهوى : اى رايتك فاحببتك عن مشاهدة اليقين لا من خبر وسمع وتصديق عن طريق النعم والاحسان فتختلف محبتى اذا تغيرت الافعال لاختلاف ذلك على ؟ ولكن محبتى عن طريق العيان فقربت منك وهربت اليك فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال المحب :

فرغت قلبها اشتغالا بذكرى
وكذا كل فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : « واصبح فؤاد ام موسى فارغا » اى ملآن بذكره حتى فاض فكادت ان تظهره فتقول هو ابنى فعبر عن الملء بالفراغ من ضده لولا ان أولينا عليه بربطنا فكظمت . ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو اظهرت لقتل .

واما الحب الثانى الذى هو اهل له : تعنى حب التعظيم والاجلال لوجه العظيم ذى الجلال .

تقول : ثم انى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ولا أستاهل أن انظر اليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لا يوجب لك جزاءا عليه ، بل يوجب على كل شىء مما لا اطيقه ولا اقوم بحقك فيه ابدا ، اذ كنت قد احببتك فلزمنى خوف التقصير ، ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حبك ، اذ ليس كمثلك شىء ، كما قال المحب :

اصبحت صـــبا ، ولا اقـول بمن
خوفا لمن لا يخـاف من احـد
اذا تفكـرت فى هـواى له
لمست راسى : هل طار عن جسدى ؟!

لولا ان الحب ينطق ، والشوق يقلق ، والوجد يحرق ، فالمحب لا يلام لغيبة النفس عنه ، والا نام . تقول (اى رابعة) : فتفضلت على بفضل كرمك ، وما انت له اهل من تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخرا ، كما اريتنيه اليوم عندك اولا ؛ فلك على ما تفضلت به فى ذاك عندى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا ها هنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، اذا كنت انا وصلت اليها بك ، فأنت المحمود فيهما لانك وصلتنى بهما . فهذا الذى فسرناه هو وجد المحبين المحققين » .

ويستطرد صاحب قوت القلوب فيقول ، شارحا لبيت رابعة الأخير :

« ان الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرا ، كما اراها وجهه عنده ذلك اليوم أولا .

ومعنى ذلك ان الله تعالى قد تفضل عليها فى هذه الحياة الدنيا بمعاينة سجات وجهـه ، وكذلك سيتفضل عليها برؤيتها اياه فى الآخرة . فكأن قولها . « ذا » يشير الى المعاينة فى الدنيا وقولها « ذاك » يشير الى المعاينة فى الآخرة . ثم انها لا ترى لنفسها فضلا فى هذين الأمرين ، بل لله وحده الفضل فى كليهما وله وحده الحمد على كليهما لأن الظفر بهما كان عن طريقه » .

ويعقب الغزالى على أبيات رابعة فى الاحياء فيقول :

« ولعلها ارادت بـ « حب الهوى » حب الله لاحسانه اليها ، وانعامه عليها بحظوظ العاجلة ، و بـ « حبه لما هو اهل له » الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين » .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : « .... والذى نفهمه من هذا الشعر ان الحب الأول هو حب العبودية ، وهو حيرة شاغلة عن كل ما عداها . والثانى : حب المعرفة وغايتها رفع الحجب الكثيرة المانعة من كمالها الى ان تكمل بكرامة الرؤية فى الآخرة » .

وقد وردت هذه الأبيات ضمن قصة ذكرها السراج القارى فى كتابه « مصارع العشاق » ونقلها عنه الزبيرى فى كتابه « اتحاف السادة المتقين » وهذه هى القصة :

« قال ذو النون بينما أنا أسير على ساحل البحر اذ بصرت بجارية عليها اطار شعر واذا هى ناحلة ذابلة فدنوت منها لأسمع ما تقول فرايتها متصلة الأحزان بالأشجان وعصفت الرياح واضطربت الأمواج وظهرت الحيتان فصرخت ثم سقطت الى الأرض فلما أفاقت بحت ثم قالت :

ـ يا سيدى ! بك تقرب المتقربون فى الخلوات ؛ ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . انت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفلك الدوار ، والبحر الزخار ، والقمر النوار ، والنجم الزهار ، وكل شيء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهار :

يا مؤنس الابرار فى خلواتهم | يا خــــير من حلت به النزال
من ذاق حبــك لا يزال متيما | فرح الفؤاد ــ متيما ــ بلبال
من ذاق حبك لا يرى متبسما | من طول حزن ،فى الحشا اشعال

فقلت لها : زيدينا من هذا !

فقالت : اليك عنى . ثم رفعت طرفها الى السماء ، وقالت :

احبــك حبين : حب الوداد | وحبـــا لانك اهـــــل لذاك
فاما الذى هو حب الــــوداد | فحب شــغلت به عن ســواك
واما الذى انت اهـــل لـــه | فكشفك للحجب حتى اراك
فما الحمد فى ذا ، ولا ذاك لى | ولكن لك الحمــد فى ذا وذاك

ثم شهقت شهقة فاذا هى قد فارقت الدنيا . فبقيت اتعجب مما رايت منها ، فاذا بنسوة قــد اقبلن ، عليهن مدارع الشعر ، فاحتملنها ، فغيبنها عن عينى ، فغسلنها ثم اقبلن بها فى اكفانها ، فقلن لى : تقدم فصل عليها . فتقدمت وصليت عليها وهن خلفى . ثم احتملنها ومضين » .

وقد اورد الشيخ الحريفيش ــ فى كتابه « الروض الفائق » ــ هذه الابيات فى اطار آخر وان كان بصدد الحديث عن رابعة ، فقال :

« قال ســـعد بن عثمان : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى اسرائيل ، واذا بشخص قد اقبل ، فقلت :

ــ يا استاذ ، شخص قد اتى .

فقال :

ــ انظــر من هو ، فانه لا يضــع احــد قدمه فى هذا المــكان الا صديق .

فنظرت فاذا هي امراة . فقلت :

ــ انها امراة .

فقال : صديقة ورب الكعبة . فابتدر اليها وسلم عليها .

فقالت : ما للرجل ومخاطبة النساء .

فقال : انا اخوك ذو النون ، ولست من اهل التهم .

فقالت : مرحبا ، حياك الله بالسلام .

فقال لها : ما حملك على الدخول فى هذا الموضع ؟

فقالت : آية من كتاب الله عز وجل ــ قوله تعالى : « الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

فقال لها : صفى المحبة .

فقالت : سبحان الله . انت عارف بها ، وتتكلم بلسان المعرفة وتسألنى عنها ؟

فقال لها : للسائل حق الجواب .

فانشدت تقول :

احبك حبين : حب الهـوى وحبـا لانك اهـل لذاكا
فأما الذى هـو حب الهـوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
واما الذى انت اهـل لـه فكشفك للحجب حتى اراكـا
فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمـد فى ذا وذاكا

وقد علق على هـذه الاسطورة الدكتور محمـد مصطفى حلمى فقال :

« واذا عرفنا ان هذه الابيات لرابعة انتهينا الى ان ذا النون انما يتحدث هنا عن هذه الزاهدة العابدة العاشقة وعن حبها لله دون ان

بذكر اسمها ولما كانت رابعة العدوية تذهب فى حبها الالهى مذهبا قوامه الاقبال على الله وايثاره على كل من عداه والتنزه عن عبادته خوفا من ناره او طمعا فى جنته بحيث كانت غايتها القصوى هى أن ينكشف عن قلبها غبن الحجاب فتستمتع بما يبيحه الله لها من مطالعة وجهه الكريم . فكذلك كان ذو النون يذهب فى حبه هذا المذهب .. والمتأمل فيما أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وقصائد منظومة يلاحظ انه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعا صريحا سواء فى تعبيره عن اقبال الله على العبد او اقبال العبد على الله وانه باستعمال لفظة الحب بنوع خاص انما يشارك رابعة العدوية التى عاصرته (1) والتى تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالا صريحا فيما كانت تناجى به ربها او فيما كانت تتحدث عن علاقتها به واقبالها عليه وايثارها له على الرغم من أن كتب الطبقات والتراجم قد تضاربت فى اثبات الصلة بين ذى النون ورابعة ونفيها فاننا لا نستطيع مع ذلك ان ننكر مابين مذهبيهما فى الحب الالهى واستعمالهما للالفاظ الدالة عليه والمعبرة عنه من أوجه الشبه » .

ان الحب عند رابعة هو الفناء فى الله وحده حتى يكون الحب كاملا .

روى العطار فى تذكرة الأولياء :

« ان رابعة كانت تنوح باستمرار ، فسئلت لماذا تنوحين ؟ ومامثمة ألم عساك تشكين منه ؟

---

(1) ولد ذو النون المصرى حوالى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ، وهنا استحالة تاريخية للجمع بينهما ؟ ، ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان ننكر ما بين مذهبيهما فى الحب الالهى من أوجه الشبه .

فاجابت : واحسرتاه ، العلة التى اشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجــه ، وما يعيننى على احتمال هذه العــلة الا رجائى ان احقق غايتى هاتيك فى العالم الآخر ، ان ارى وجهه الكريم » .

نشدت ربها ، وفنيت فى غايتها ، فاحترق جســـدها بلهب الشوق ، والتهب قلبها بالوجد ، ولا تبالى بهذا الجسد ولا بآلامه ، فهى تعيش على الامل الكبير أن ترى ربها عز وجــل ، وان كانت المكاشفة بالرؤيا فى الدنيا غير مستطاعة فلتكن الامنية الــكبرى فى الآخرة يوم يتجلى الله لعباده المحبين كالقمر ، كما جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

روى العطار : أن مالك بن دينار ، وشقيق البلخى ، وسفيان الثورى ، غدوا لزيارة رابعة ، فسألتهم عن معنى الصدق .

فقال شقيق : ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه .

فقالت رابعة : هذا غرور .

فقال سفيان : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه .

فقالت رابعة : هنالك ماهو خير من هذا .

فقال مالك : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه .

فصاحت رابعة : بل ثمة افضل من هذا كله .

فقالوا لها : تكلمى انت اذن .

فقالت : ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام ايديهن لما رأين وجه يوسف .

وسعت رابعة دائرة الحب الإلهى .. فبعد أن كانت تحب الله .. طمعا فى جنته ، وخوفا من ناره ، بعد ان كانت تناجى ربها :

« يارب اتحرق بالنار قلبا يحبــــك ، ولسانا يذكرك ، وعبدا يخشاك » .

بعد ان كانت تعرف ان الحب محصور فى هذه الدائرة الضيقة ، اذ بها ترى الأفق الواسع الرحب ، وتمتد دائرة الحب ، وتسمو الى معاريج السموات .. فترى الحب هو الفناء فى حب الله لأنه جدير بالحب العميق ، وليس خوفا من النار ، ولا طمعا فى الجنة .

انها كانت تريد — كما قالت — الا تكون « أجيرة سوء » فتترك الشر ، وتعمل الخير لتنال أجرا هو الجنة .

لقد وضعت يوما النار فى يد ، والماء فى اليد الأخرى ثم راحت تقول :

« ساشعل النار فى الجنة ، واسكب المـاء على النـار ، حتى ينجاب الغشاءان عن طريق السالكين الى الله ، ويتبين مقصودهم ويشاهدون الله لايحدوهم امل ، ولا يفزعهم خوف ، افان لم يكن جنة ولا نار ، لم يعبد الله احد ، ولم يطعه أحد ؟ »

وكانت تناجى ربها :

« الهى .. ان كنت اعبدك خوفا من نارك ، فأحرقنى بها ، وان كنت اعبدك طمعا فى جنتك فأحرمنى منها اما اذا كنت اعبدك من اجل محبتك ، فامنحنى الجزاء الاكبر امنحنى مشاهدة وجهك ذى الجلال والاكرام » .

وكانت تقول :

« الهى . كل ما قدرته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك . وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى الا اليك أنت وحدك » .

أن رابعة تعبد الله وحده من غير طمع فى شيء أو خوف من شيء وقد رأت رابعة الناس يعبدون الله رجاء دخول الجنة أو مخافة النار ، فهل معنى هذا انه اذا لم يكن ثمت جنة ولا نار لن يعبدوا الله .

هذا سؤال ألقت به رابعة على جماعة من الصالحين ذكروا لها أنهم يعبدون الله خوف النار وطمعا فى الجنة . وهنالك سألوها :

ــ « وأنت ، لماذا تعبدين الله » ؟

فأجابت :

ــ انما أعبده لذاته . أفلا يكفينى نعمة منه أنه يأمرنى بعبادته »

انها ترى اذن فى مجرد أمر الله بعبادته نعمة سابقة كافية بحيث لايرجو المرء بعدها أمرا .

ولقد سئلت يوما :

ــ ما تقولين فى الجنة ؟

قالت :

ــ الجار ثم الدار . أى انها تنشد أولا رؤية الله قبل الدار أى الجنة .

قالت لسفيان الثورى يوما :

ــ ما تعدون السخاء فيكم ؟

ـ أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه .

ـ اخطأتم ..

فقال لها !

ـ فما السخاء عندكن ؟

اجابت رابعة :

ـ ان تعبده حبا له وفيه لا طمعا بثواب وجزاء .

وفي يوم سألها أيضا سفيان الثوري

ـ اى شيء أفضل أن يتقرب به العبد الى الله ؟

قالت :

ـ ألا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره .

وصلت رابعة الى درجة من الحب الالهى ـ دفعها ـ وهى التقية الصالحة ـ الى الجرأة فى القول أحيانا .

فيروى أنها قالت :

ـ الهى ، اذا بعثت بى الى النار يوم البعث فسأصرخ نائحة :

« ربى ، يامن أحبه كل هذا الحب ، اهكذا تعامل من يحبونك ؟ »

فسمعت صوتا يقول :

ـ « يا رابعة ! لا تظنى بنا ظن السوء ، لأننا سنعطيك مقاما بين المؤمنين حتى تستطيعين أن تحديثنا عن اسرارنا » .

كانت رابعة تعيش فى جو من الحب الالهى لا يمكن وصفه ، مهما

أوتى الكاتب من دقة بيان ، وروعة تصوير ، فالمحبة فوق الوصف وفوق التعريف وفوق التحديد والتقسيم .

علمت رابعة الناس معنى الحب الالهى ، وانشدت لهم فى ذلك اعذب الألحان ، ونظمت أجمل الكلمات .

ومما انشدته فى حبها لله عز وجل :

انى جعلتك فى الفؤاد محــــدثى
وابحت جســـــمى من اراد جلوسى

فالجســـم منى للجليس مؤانس
وحبيب قلبى فى الفــــؤاد انيسى

كانت رابعة رائدة الحب الالهى لا تشعر بالآلام ، وان شعرت فهى راضية بها ، راضية بقضاء الله رضاءها بالنعمة .

زارها سفيان الثورى ذات يوم وقال لها :

ــ اى رابعة ، ادعى الله حتى يخفف آلامك .

قالت رابعة :

ــ يا سفيان ، من بعث الى بهذه الآلام ؟

اجاب سفيان :

ــ انه الله تعالى .

فقالت رابعة :

ــ اذا كانت مشيئة الله أن يمتحنني بهذه المحنة ، فكيف أتوجه اليه . متجاهلة ارادته ؟

فسألها سفيان :

ــ اى رابعة ماذا يود قلبك ؟

فأجابت رابعة :

ــ يا سفيان ، وانت الرجل العليم ، كيف تنطق بهذه العبارات ان الله تعالى يعلم ان قلبى يريد منذ اثنى عشر عاما بلحا ناضجا ، وهو ليس بنادر فى البصرة ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه . لست الا عبدة ، وليس لى ان أتصرف وفق اهواء قلبى ، لأنى اذا اردت ولم يرد هو ، لكان هذا منى جحودا .

قال سفيان :

ــ ليكن ! لست بقادر على ان احدثك فى شئونك ، لكن حدثينى انت عن شئونى .

فقالت رابعة :

ــ لولا ميلك الى هذه الدنيا لكنت رجلا لاغبار عليك .

فصرخ سفيان باكيا :

ــ الهى .. ليتك ترضى عنى !

فقالت رابعة :

ــ ألا تخجل من أن تقول لله ليتك ترضى عنى ، دون ان تفعل شيئا لرضاه ؟

ولم ينقطع صحبها يوما عن زيارتها ليستأنسوا بها ، ويطمئنوا بوجودها ، وارشادها ، متأدبين بحضرتها ، وقد شق عليهم غلوها فى التقشف ، واعراضها عن كل عون منهم او من غيرهم .

زارها مالك بن دينار وهى فى هذه الخصاصة والمحنة ، فرآها تشرب من اناء مكسور وقد فرشت الأرض حصيرة قديمة وكان المتكأ عندها مخدة من اللبن .

فقال لها وقد تقطع قلبه حزنا عليها :

ـ يا رابعة لى أصدقاء أغنياء ، فان أذنت لى سألتهم أن يعطونى شيئا من أجلك .

فأجابت رابعة :

ـ أسأت القول يا مالك ، ان الله هو الذى يرزقنى ويرزقهم ، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فاذا كانت هذه مشيئته ، فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا .

ان رابعة ردت كل عون انسانى لأنه جاء من قبل مثلها ، فضل طريقه ، لأن الله وحده هو المعطى . وما عطاء الانسان الفانى ، وهو يستعبد باحسانه ، ولذلك رفضت عطايا المخلوق ، وتأدبت أن تطلب من الخالق ، وكانت ترى ان شئون الدنيا ليست ملكا لأحد ، وانما هى عارية تمر من يد الى يد . والانسان يمر بالدنيا ليؤدى عملا أو رسالة ثم يزول ويأتى ، غيره .

هكذا كانت رابعة توجه وتؤدب كبار المتصوفين فى عصرها ، واقامت منارات من الهداية ، ليستضىء بها طلاب الحب العلوى .

وكانت رابعة تحب الرسول الكريم ، فهو حبيب الله ، وهو حبيب المؤمنين . وقد أرسله الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى الحق والى الصراط المستقيم .

وكانت رابعة تصلى الف ركعة فى اليوم والليلة فقيل لها :

ــ ماتريدين بهذا ؟

قالت :

ــ لا اريد به ثوابا ، وانما افعله لكى يسر به رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء : « انظروا الى امرأة من امتى هذا عملها ».

وسئلت يوما :

ــ كيف حبك للرسول صلوات الله عليه .

قالت :

ــ انى والله احبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين .

فرابعة كانت تحب الرسول الكريم ، حبا شديدا ، ولكن بعد أن ارتقت الى اسمى مراقى الحب والمعرفة بالله ، لم تشغل الا بالله وحده ، الذى كانت لا تنقطع عن التفكير فيه جل شانه .

فالحب عند رابعة هو استغراق فى التفكير فى المحبوب ، والانصراف عن كل ماعداه ، حتى كراهية الاعداء . فقد سئلت يوما :

ــ اى رابعة ! اتحبين الله تعالى ؟

ــ اوه ! نعم احبه حقا .

ــ وهل تكرهين الشيطان ؟

ــ ان حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان !!

٨ - الحب والمعرفة

الحب هو أصل الاسلام وجوهره ، وهو عند الصوفية معراج لعلوم التصوف كافة . تلك العلوم التى تقوم على الفيض والكشف والالهام .

يقول الامام القشيرى متحدثا عن المحبة والمعرفة :

« .. وعند القوم هى صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته . ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنحى عن أخلاقه الرديئة ، وآفاته الذميمة ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله بجميل اقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع احواله ، وانقطع عن هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه الى خاطر يدعوه الى غيره ، فاذا صار من الخلق اجنبيا ومن آفات نفسه بريا . ومن الساكنات والملاحظات نقيا ، ودام السر مع الله تعالى مناجاته وحق فى كل لحظة اليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق سبحانه ، بتعريف أسراره فيما يجربه من تصاريف اقداره ، يسمى عند ذلك عارفا » .

وبذلك يجعل القشيرى المحب متصفا بكل صفات الكمال ، متحليا بانقى العبادات واصفاها ، ذاكرا متبتلا فى محارب الله جل جلاله ، منقطعا حتى عن خواطر النفس وهواجس القلب . فذا

تمت له هذه المجاهدات والعبادات وانقطع الى ربه ألهمه مولاه ولقنه وعلمه واطلعه على الاسرار ، وتصاريف الاقدار وأصبح محدثا عن الله تعالى . .

وقد سئل الشبلى عن المعرفة ، فقال : أولها الله تعالى ، وآخرها ما لا نهاية له .

وقال بعضهم : من عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وانس بالله تعالى .

وقيل : المعرفة توجب الحياء والتعظيم ، كما ان التوحيد يوجب الرضا .

وقال الحسين بن منصور :

« اذا بلغ العبد مقام المعرفة أوحى — ألهم — الله اليه بخواطره وحرس سره ان يسنح فيه غير خاطر الحق » .

ويقول ابن القيم (١) :

« ان صفات الله ونعوت كماله ، وحقائق أسمائه هى التى تجذب القلوب الى محبته وطلب الوصول اليه ، لان القلوب انما تحب من تعرفه وتخافه وترجوه وتشتاق اليه وتلتذ بقربه وتطمئن الى ذكره بحسب معرفتها بصفاته ، ومن معرفة صفات الله ومحبتها تأتى علوم الكشف والفيض » .

---

(١) مدارج السالكين ج ٣ ، ص ٢٢٤ هـ

اما محيى الدين بن عربى فيرى المعرفة فوق المحبة لان المعرفة تمكين وثواب ، والمحبة اشواق واحتراق . يقول ابن عربى :

« المحب اذا سكت هلك ، والعارف ان لم يسكت هلك » .

المحبة عاطفة جياشة ، ووجدان ثائر ، وقلب محترق ، ومواجيد وأشواق ، فهى فى حاجة لان تتنفس بالكلمات والالحان .

اما المعرفة ، فهى العلم على المشاهدة ، بما يعطيه هذا العلم من الهامات وأسرار وعجائب وحقائق لو نطق بها العارف لما احتملته العقول ، ولانكر الناس عليه وثاروا به .

والحقيقة المستمدة من كلمات المتصوفة انفسهم فى المقامين ، انه لا فرق هناك بين المحبة والمعرفة فكلتيهما مكملة للأخرى ، ملازمة لها .

يقول ابن عطاء :

ـ المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة ، والحياء ، والأنس .

وسئل أبو تراب عن صفة العارف فقال : الذى لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

وقيل لابى يزيد :

ـ بماذا وجدت هذه المعرفة ؟

فقال :

ـ ببطن جائع وبدن عار .

وقال القشيرى :

— العارف انس بذكر الله فاوحشه من خلقه ، وافتقر الى الله فاغناه عن خلقه ، وذل لله تعالى فاعزه فى خلقه .

ويقول ابو عثمان المغربى : العارف تضىء له انوار العلم فيبصر به عجائب الغيب .

ان كل تلك الصفات والسمات التى اطلقها الصوفية على العارف والمعرفة ، هى ايضا صفات وسمات تطلق على المحبة وتلازمها وتعرف بها فى غير تحرج أو تعنت .

يقول الحلاج : « حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع اوصافك وترك مقوماتك » .

وسئل البسطامى عن المحب فقال :

— «لا يفتر عن ذكره ، ولا يمل من حقه ، ولا يستأنس بغيره» .

فالمعرفة والحب نعتان لمسمى واحد ، لأن الحب ثمرة المعرفة ، والمعرفة ثمرة الحب والفيوضات الربانية : والكشوف القلبية ، وهى أفق التصوف وميدانه فى المعرفة لا يمكن أن تكون الا مع المحبة وبالمحبة .

يقول ذو النون المصرى :

« الهى . لا تترك بينى وبين أقصى مرادى حجابا الا هتكته ، ولا حاجزا الا رفعته ، ولا وعرا الا سهلته ولا بابا الا فتحته ، حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك . وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بالرضى منك فؤادى وجميع أحوالى ، حتى لا أختار غير ما تختاره ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ، ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك »

ان المعرفة الحقة عنده هى التى تتخذ موضوعها الاسمى من الذات الالهية كما أن المحبة الصادقة هى التى تتخذ غايتهـا القصـوى من مشاهدة الحقيقة العلية ، بحيث يقيم الرب قلب العبد بين ضياء معرفته ، ويذيقه طعم محبته

تقول رابعة العدوية وهى الحجة فى باب الحب والمعرفة :

« ان الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب عنه العلماء بالعلوم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور محبته ، فلم يحجبهم بشىء »

٩ - التجريد الحسى عند رابعة

تطورت الحياة الروحية عند رابعة الى الذروة من التجريد والتسامى عن كل ما هو حسى . وواكب هذا استغراقها الكامل فى الله ، **بحيث أقفلت ابواب الحواس .**

يقول الشبلى :

« لا يتحقق العبد بالتوحيد حتى يستوحش من سره وحشة لظهور الحق عليه ، هنـــاك لا يخطر بباله شىء آخر غير الحق ». فالشواهد عن سره مصروفة ، والأعواض عن قلبه مطرودة ، فلا شاهد يشهده ، ولا عوض يعبده ، ولا سر يطالعه ، ولا بر يلاحظه هو فى حقه عن حقه محجوب ، وفى حظه عن حظه مسلوب » .

الشواهد عن سره مصروفة ، والاعواض عن قلبه مطرودة ، هذا هو الفيصل فى حقيقة التجريد الصوفى للحسيات أو الماديات .

قال صوفى يشرح مقامات الحج :

« حججت فرأيت الكعبة ، ولكنى لم أر رب الكعبة وهـــذه رؤية المحجوب ؟ ثم حججت مرة ثانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة

فهذا تامل الوجود الذى فيه كل شيء موجود . ثم حججت الثالثة فرايت رب الكعبة وما رايت الكعبة ، فهذا مقام الوقفة . مقام الفناء فى التوحيد » .

ورابعة أول من جرد الاشياء والصور من معانيها الحسية ، وأول من ابتدع هذا اللون من الايمان الصوفى .

ارتحلت رابعة ذات يوم الى الكعبة ومعها حمار يحمل متاعها فنفق الحمار فى الطريق ، فقال أصحاب القافلة :

ـ سنحمل متاعك على دوابنا .

فقالت :

ـ ما كان اتكالى عليكم لما أن رحلت ، بل ثقتى بالله تعالى فارحلوا اذن وحدكم .

فلما ارتحلت القافلة ، دعت رابعة الله وهى تقول :

ـ الهى اكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعاف العاجزين ؟ لقد دعوتنى الى زيارة بيتك وها انت ذا تدع حمارى ينفق فى الطريق، وتدعنى فى الفيافى وحيدة .

فما أتمت هذه الكلمات حتى نهض الحمار مليئا بالحياة ، فوضعت عليه متاعها واستمرت فى طريقها ولحقت بالقافلة .
ويروى العطار فى « تذكرة الأولياء (١) عن الشيخ ابو على الفارمذى ـ انه لما جاء موسم الحج توجهت رابعة ناحية الصحراء وتقلبت على

---

(١) تذكرة الاولياء : جـ ١ ، ص ٦٣

اضالها حتى بلغت الكعبة فى سبعة اعوام . فلما بلغتها سمعت صوتا يقول لها :

ــ ماذا تريدين يا رابعة ؟ اذا كنت تريدينني فسأتجلى لك بكل جلالى فتذوبين توا كما يذوب الماء .

فاجابت :

ــ الهى . ليس لى من الطاقة ما يبلغنى هذه المرتبة . ولست اطلب الا ذرة من الفقر الروحى .

فقال الصوت :

ــ اى رابعة . ان الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها فى طريق الأولياء لكن اذا لم يبق عليهم ليبلغوا الينا الا قيد الشعرة فقد يحدث ان يفسد امرهم فى الحال وينحوا عن الغاية . اما أنت، فلا تزالين فى داخل السبعين حجابا او مقاما . فطالما لم تخرجى من تحتها وتضعى قدمك فى طريقنا . فانك لن تقدرى على الحديث عن الفقر .

فقال صوت :

ــ يا رابعة ! انظرى الى الأعلى !.

فلما نظرت الى الاعلى ، رات بحرا من الدم معلقا فى الهواء وصاح لها صوت :

ـ يا رابعة ! ان هذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون اولئك الذين احبونا وسعوا الينا . ومنذ المقام الأول قضى عليهم الى حد انه لم يبق من اشخاصهم اثر فى هذا العالم او فى الآخرة ».

فقالت رابعة :

ـ الهى . دعنى ارى مثلا على درجة السعادة التى يصل اليها هؤلاء العشاق .

فما اتمت هذه العبارة حتى اتاها الحيض وصارت غير طاهرة وفى نفس الوقت ناداها صوت يقول :

ـ ان المرتبة الاولى التى يبلغها العشاق يمثلها تماما انسان تقلب على اضلاعه سبع سنوات كيما يزور جدارا من اللبن ، ولما اقترب من هذا الجدار اغلق الطريق على نفسه نتيجة عائق نشأ عن شخصه ».

فلما يئست رابعة قالت :

ـ الهى . لا تدعنى كى ابقى فى بيتى ، ولا تريد ان تقبلنى فى بيتك ، فاما ان تدعنى اقيم هادئة فى بيتى بالبصرة ، او اسمح لى ان ادخل الكعبة ، وهى منزلك .

لقد فتشت عنك قبل ان احنى راسى امام الكعبة ، دعنى الآن اذهب ، فلست جديرة بدخول بيتك .

ثم عادت الى البصرة واقامت فى خلوتها وانقطعت بكامل نفسها للعبادة ».

وجاء فى تذكرة الاولياء ايضا :

كانت رابعة فى طريقها الى الكعبة ذات يوم وحيدة فى الصحراء فشعرت بالوحشة فصاحت :

ـ الهى ان قلبى ليضطرب فى هذه الوحدة . انا لبنة والكعبة حجر ، وما اريد هو ان اشاهد وجهك الكريم .

فنادها صوت من عند الله تعالى :

ـ يا رابعة اتطلبين وحدك ما يقتضى دم الدنيا بأسرها ، ان موسى حين رام ان يشاهد وجهنا لم نلق الا ذرة من نورنا على جبل فخر صعقا .

ويقول العطار :

« ان رابعة كانت بسبيل الحج فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء . فقالت :

ـ لا اريد الكعبة ، بل رب الكعبة أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ . ولم تشأ ان تنظر اليها . »

ويقول :

كان ابراهيم بن ادهم قد امضى اربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لانه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين . وكان يقول :

ـ « غيرى يسلك هذا الطريق على قدميه ، اما انا فاسلكها على راسى » .

وبعد اربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها . فقال نائحا :

ـ وا اسفاه ! اصرت اعمى حتى لا ارى الكعبة ؟

فسمع صوتا يقول :

ـ يا ابراهيم . لست اعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة .

فتأثر ابراهيم ثم راى الكعبة قد عادت الى مكانها . وابصر رابعة تتقدم مستندة الى عصا ، فقال :

ـ اى رابعة ، ما اجل عملك ! وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة .

فقالت رابعة :

ـ يا ابراهيم ، واية ضجة تحدثها انت فى الدنيا بأن امضيت اربعين سنة حتى بلغت هذا المكان ؟ لان الكل يقولون : ابراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين .

فقال ابراهيم :

ـ نعم ! لقد امضيت اربعين سنة فى اختراق هذه الصحراء .
فقالت رابعة :

ـ يا ابراهيم . انت جئت بالصلاة ، وانا جئت بالفقر .
وبكت طويلا . وبعد ان زارت الكعبة عادت الى البصرة . وفى وثبة من قلبها صاحت :

ـ يا الهى وعدت بجزاءين لشيئين : القيام بالحج ، والصبر

على الشدائد . فاذا لم يكن حجى صحيحا عندك ، فما أكبرها مصيبة عندى . لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟ .

وهذه الروايات لا بد ان تفهم على معانيها التجريدية ، فالرواية التى تقول بأن الكعبة جاءت للقاء رابعة ، فان المقصود بالكعبة هنا معنى الكعبة ، رحمة الله مثلا ، او قبول الله عز وجل لحجها ، أو اكرامه لها ، ولهذا قالت : لا اريد الكعبة ، وانما أريد رب الكعبة .

ومعنى آخر من معانى التجريد لهذا القول ـ انتقال الكعبة الى رابعة ، اى وجود رابعة دائما مع الله بالقلب فكأنها فى حج دائم ، وهو اطلاق المعنى الروحى السامى على المعنى الحسى الظاهر ، اى تصعيد المعانى .

ولهذا قالت لابراهيم : انت جئت بالصلاة ، وانا جئت بالفقر . وهو تعبير عن الطريق الذى اختاره كل منهما .

ابراهيم بالصلاة ، اى بالعبادة ، ورابعة بالفقر ، اى بالتصوف والنهج الروحى . وكذلك حج رابعة على اضالعها وقطعها للطريق بهذه الصورة العجيبة خلال سبع سنوات ، وصلاة ابراهيم بن ادهم ركعتين فى كل خطوة حتى قطع الطريق الى الحج فى أربعين عاما .

كل هذا يفهم اذا جردنا الصور من معانيها الحسية ورددناها الى معانيها الروحية العالية .

فقطع الطريق على الأضالع بمثل نهج رابعة فى الحياة ، وهو نهج يمشى على مواجيد الروح والهاماتها وصلاة ابراهيم ركعتين

فى كل خطوة فى الطريق يتسق تماما مع شعار ابراهيم الذى عرف به زهدا وعبادة . (١)

وقد سـئل ابن تيمية (٢) عن قول رابعـة انها حجت فقالت (أى وهى تشير الى الكعبة) : هذا الصنم المعبود فى الأرض ، وانه ماولجه الله ، ولا خلا منه .

واجاب ابن تيمية :

« واما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت انه الصنم المعبود فى الأرض فهو كذب على رابعـة المؤمنة التقية ، ولو قال هذا من قال لكان كافرا يستتاب فان تاب والا قتل .

وهو كذب فان البيت لا يعبده المسلمون ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة اليه .

وكذلك ما نقل من قولها : والله ماولجه الله ولا خلا منه ــ كلام باطل عليها . وعلى مذهب الحلولية لا فرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى : فلأى مزية يطاف به ويصلى اليه ويحج ، دون غيره من البيوت !. وقول القائل : ما ولج الله فيه ــ كلام صحيح واما قوله : ما خلا منه ــ فان اراد ان ذاته حالة فيه او ما يشبه هذا المعنى فهو باطل ، وهو مناقض لقوله : ما ولج فيـه . فهذا ــ مع انه كفر وباطل ــ يوجب الا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، اذ الموجودات كلها عندهم كذلك » .

---

(١) طه عبد الباقى سرور : رابعة العدوية : ص ١٨٢.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل : جـ ١ ، ص ٨٠.

ويعلق الدكتور عبد الرحمن بدوى على ذلك فيقول (١) :

« وابن تيمية يرى ان هذا القول كذب على رابعة » ، ثم يقول :

« وتكذيب ابن تيمية لهذا القول على أساس أنه ليس لرابعة لم يقم على أساس تاريخى ، انما على أساس عقلى ، وهو استحالة نسبته الى رابعـة لأنها كانت عابدة مؤمنـة ، وهو قول دال على الكفر ، ولهذا لا يعتد هنا بقوله ، ان هذا القول كذب على رابعـة ما دام لم يبن ذلك على أسباب من الأسانيد التاريخية » .

وتصدى الاستاذ طه عبد الباقى سرور للدفاع عن ابن تيمية ونقد الدكتور بدوى فقال (٢) :

« الدكتور بدوى يريد أن يهاجم رابعة ولا يقبل دفاعا عنها حتى من ابن تيمية الخصم الكبير للمتصوفة ، والدكتور بدوى لا يرضيه قول ابن تيمية انها كانت مؤمنة عابدة ، لا يمكن أن يصدر عنها مثل هذا اللغو الباطل ، ويقول : ان هـذا التكذيب تكذيب عقلى ! ؟ ويطالب بالدليل التاريخى ، على أنها لم تقل هذا الكلام ونسى الدكتور ان يقدم هو الدليل التاريخى على أنها قالته والبينة كما يقول رجال الفقه على من ادعى !؟ »

والحق ان الدكتور عبد الرحمن بدوى عنـدما اراد أن يثبت أن رابعـة قالت عن الكعبة « هـذا الصنم المعبود فى الأرض وانه ماولجه الله ولا خلا منه » لم يكن يريد أن يهاجم رابعة ولا يقبل عنها دفاعا كما يقول الأستاذ طه . ولكن الواقع أن الدكتور بدوى كان يريد ان يبين أن فكرة رابعة هذه فكرة ممتازة تنبع من صميم الاسلام الحى . واليك ما قاله بالحرف الواحد :

---

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ٨٠ ـ ٨١
(٢) رابعة العدوية ، ص ١٨٧

« رأت رابعة أن الوقوف عند بيت دون آخر أى عند أثر من الخلق دون آخر ، فيــه تضييق من أفق الخليقة ، وفيــه حصر للألوهية ، فضــلا عما فيه من حسية فاضحة ، بل وشرك فى اضفاء جانب الهى على هذا البيت المادى الفانى . وفى القرآن تنبيه على ما كان عليه أهل مكة من عبادة لهذا البيت ، وذلك فى قوله تعالى :

« فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (سورة قريش : ٤)

ففيه رد على أولئك الذين عبدوا ــ أو كادوا ــ هذا البيت من دون الله . واذن فرابعة انما تعطى لهاتين الآيتين كل معناهما وتتابع الغرض المقصود منهما حينما تقول قولها هذا عن البيت المحرم : انه الصنم المعبود فى الأرض ، وانه ما ولجه الله ولا خلا منه وانما الحلول هنا أن نغالى فى تقديس هذا البيت ، بحيث تشعر بأن الله كأنه حال به كما آل اليه أمر الحج . على الأقل فى اذهان الجمهور من الناس : فهذا فعلا هو ما يسميه ابن تيمية نفسه باسم الحلول المعين ، لأنه القول بحلول الله فى شىء معين ــ انســان أو جماد أو حيوان ــ وذلك فى مقابل الحلول المطلق .

ولهذا فكلام ابن تيمية هنا حافل بالمغالطات ، خصوصا فى تجزئته تلك العبارة : « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » الى جزئين ، جعل أولهما صحيحا ، والآخر باطلا ، ان قصد به الحلول ، مناقضا لقوله ما ولج فيــه ، متناقضا فى نفسه أن قصد القول بأن الاتحاد ملازم له . وانما كان عليه أن يأخذ القول جملة فيفهم منــه انكار الحلول المعين لأن الله لم يلج هذا البيت بالذات ، اذ الله لا يحل فى شىء ، وهو حال فى كل شىء ، بمعنى أن كل شىء قوامه بالله ، ولكن هــذا لا يقتصر على شىء دون غيره . ففى تقديس البيت الى ذلك الحــد ما يقتضى أن هــذا البيت وحده قوامه من الله بينما غيره ليس قوامه منه ، وهذا هو الشرك بعينه .

« والحق أن من المميزات الكبرى للاسلام فى جوهره واصوله ، أنه حاول دائما منذ البداية الا يقصر العبادة على مكان ، لان كل مكان يصلح أن يكون بيت عبادة لله . وهو انما أتى بهـذا بمثابة رد فعل ضد اليهودية والمسيحية فى حصرها عبادة الله فى مكان معين بالذات بحيث لا تصلح فى غيره . فالصلاة فى الاسلام يمكن أن تقام فى أى مكان ، اما فى اليهـودية والمسيحية فلابد أن تقام فى مكان بالذات : كنيسة أو بيعة على التوالى . والمعنى العميق فى اتجاه الاسلام هذا الاتجاه هو الاشعار بأن الألوهية فى كل موضـع ، وان كل مكان اخذته عامر بها وصالح وبالتالى أن يكون بيت الرب . وفكرة المسجد او الجامع لا تنطوى على اى معنى من معانى التفضيل لمكان دون مكان ، كما هى الحال فى فكرة الكنيسة والبيعة ، انما ــ كما يدل عليه اسمه ــ تنحصر فى فكرة الاجتمـاع فى مكان واحد تحقيقا خصوصا للمعنى المقصود فى صلاة الجماعة وبخاصة صلاة الجمعة .

« الا أن فكرة عبادة الاماكن لفكرة حاربها الاسلام الاول بكل قوة وعنف كما يظهر فى الآية التى أوردناها من قبل : « فليعبدوا رب هذا البيت » ، وكانت جملته هذه موجهة ضد تيارين ، اليهودية والمسيحيـة اللتين اقتصرنا على المكان المعين فحصرنا فيـه امكان العبودية والعبادة والصلاة ، وتيار الوثنية العربية التى قدست البيت العتيق والحجر الأسود الذى فيـه حتى كادت أن تجعله محلا للألوهية ولهـذا كان على الاسـلام السائر المتطور ــ لا ذلك الجامد المتحجر الذى يمثله أمثال ابن تيمية والسلفية عامة ــ أن يتابع تلك الحملة حتى تؤتى ثمارها الكاملة العامرة بالتسـامى الروحى فوق كل ما هو حسى أو مشعر به ، فتزول البقية الباقية من الوثنية العربية : وهذا هو ما فعلته رابعة العدوية ، وما فعله الحلاج من بعدها . لقد بعث النبى الطلائع الأولى ، فعلى المسلمين على مر الزمان الأبدى أن يتابعوا الحمـلات حتى تتحقق الغـايات

البعيدة التى لمح من بعيد اليها دون أن يخطو فى السبيل اليها الا الخطوات الضئيلة الأولى .

واذن فالفكرة التى عنها صدرت رابعة فى هذا القــول فكرة ممتازة تتبع من صميم الاسلام الحى » .

وهناك بعد ذلك كلمات لرابعة ، تمشى مع نهجها الايمانى فى التجريد الحسى للكلمات والصور ، ومع نهجها التعبدى فى المحبة .
روى المناوى : ان رابعة سمعت قارئا يقرأ :
« ان اصــحاب الجنــة اليــوم فى شغل فاكهون » (سورة يس : ٥٥)
فقالت :
ــ مساكين اهل الجنــة فى شغل هم وازواجهم . وكلمــة « فاكهون » هنا معناها ــ فى كثير من التفاسير ــ يفتضون الابكار .

« وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال انها ما عرفت ، وانها لمسكينة فانما شغلهم انما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادىء الرأى والتعريض فى حق نفوسهم ، انهم منزهون عن ذلك » .

وعقب الدكتور عبد الرحمن بدوى على عبارة رابعة ، فصورها بصورة المتهكمة بالقرآن ، المتمردة على ما فيه من لذائذ حسية (١)
ان رابعة ترى اللذة الكبرى والسعادة العظمى فى رؤية الله عزل وجل ، وان هذه الرؤية فوق الجنة ، وفوق ما فيها من حور وولدان وانهار ولحم طير .

رابعة صاحبة هذا المنهج فى الحب والمعرفة ، تمشى مع نفسها فتهتف فى وجد ونشوة . مساكين اهل الجنة ، مساكين لأن الجنة شغلتهم عن رب الجنة .

وهذا لحن من القول ، لا يعرفه الا من ذاق حلاوة الحب الحب الالهى كرابعة .. أو من كان تحت ظلالها .

(١) شهيدة العشق الالهى : ص ٨٤

١٠ - كرامات رابعة

الكرامات أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح من عباده ، اكراما له ، دون ان يكون للعبد سلطان فى هذا الأمر ، أى أن الله تعالى قد يجرى الكرامة على يديه دون قصد ولا ارادة منه .

يقول القشيرى :

« ظهور الكرامات على الأولياء جائز » .

والدليل على جوازه انه أمر موهوم حدوثه فى العقل لا يؤدى حصوله الى رفع اصل من الأصول ، فواجب وصفه سبحانه ، بالقدرة على ايجاده ، واذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه ، فلا شىء يمنع جواز حصوله .

وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله ، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز . والذى يدل عليه ان تعريف القديم سبحانه أيانا — أى اعلامنا بالكرامة — حتى نفرق بين من كان صادقا فى أحواله ، وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال ، أمر موهوم ، ولا يكون ذلك الا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفترى فى دعواه ، وذلك هو الكرامة التى أشرنا اليها .

ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة فى أيام التكليف ، ظاهرا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله .

وتكلم الناس فى الفرق بين الكرامات وبين المعجزات من اهل الحق ، فكان الامام ابو اسحق الاسفراينى ، يقول : المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبى ، كما ان العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد فيمن لا يكون عالما .

وكان يقول : الأولياء لهم كرامات شبه اجابة الدعاء ، فاما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا .

واما الامام ابو بكر بن فورك ، فكان يقول : المعجزات دلالات صدق — اى للأنبياء — ثم ان ادعى صاحبها النبوة فالمعجزات تدل على صدقه فى مقالته ، وان اشار صاحبها الى الولاية دلت المعجزة على صدقه فى حالته فتسمى « كرامة » ولا تسمى « معجزة » ، وان كانت من جنس المعجزات للفرق .

ويقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات : ان الأنبياء عليهم السلام مامورون باظهارها والولى يجب عليه سترها واخفاؤها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يدعى ذلك (اى ما ذكر من المعجزات) ويقطع القول به ، والولى لا يدعيها ، ولا يقطع بكرامته ، لجواز ان يكون ذلك مكرا .

وقال القاضى ابو بكر الأشعرى : ان المعجزات تختص بالانبياء ، والكرامات تكون للأنبياء كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها ، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وانما كانت معجزة لحصولها على اوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة . واحد تلك الشرائط : دعوى النبوة ، والولى لا يدعى النبوة ، فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة .

وهذا القول الذى نعتمده ونقول به ، بل ندين به ،

فشرائط المعجزة كلها او اكثرها ، توجد فى الكرامة الا هذا الشرط الواحد . والكرامة فعل لا محالة محدث ، لأن ما كان قديما لم يكن له اختصاص بأحد ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل — أى الكرامة — فى زمان التكليف ، وتظهر على عبد تخصيصا له وتفضيلا ، وقد تحصل باختياره ودعائه ، وقد لا تحصل له ، وقد تكون بغير اختياره فى بعض الأوقات ، ولم يؤمر الولى بدعاء الخلق الى نفسه ولو اظهر شيئا من ذلك على من يكون اهلا له لجاز .

ويقول : فالقول بجواز ظهورها على الاولياء واجب ، وعليـــه جمهور اهل المعرفة ، ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء فى الجملة علما قويا انتفى عنه الشكوك . ومن توسط هـــذه الطائفة وتواتر عليـــه حكاياتهم واخبارهم لم تبق له شبهة فى ذلك على الجملة .

ومن دلائل هذه الجملة : نص القرآن فى قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال « انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك (١) » ولم يكن نبيا ، والأثر : عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أنه قال : « يا سارية الجبل » فى حال خطبته يوم الجمعة ، وتبليغ صوت عمر الى سارية فى ذلك الوقت حتى تحرز من مكامن العدو فى تلك الساعة (٢) » .

ويقول المناوى فى مقدمة الطبقات :

« وهى جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآنى والحديث النبوى ، اما القرآن . فلقصة أهل الكهف حيث اقاموا فيه ثلثمائة

---

(١) سورة النمل : ٤٠

(٢) الرسالة القشيرية : ج ٢ ، ص ٦٦١ .

سنة وازيد نيـاما احياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء باجماع الفرق ، وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عنـدها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة بلا موجب .

وقصة واصف بن برخيا حيث احضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة فى طرفة عين . وأما السنة فحديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل الرضيع كما فى الصحيحين وحديث أصحاب الغـار الذى انطبق عليهم الصخر ، وحديث البقرة التى ركبها صاحبها فالتفتت اليه وكلمته .

ومن حوادث الصحابة صيحة عمر ــ يا سارية الجبل ــ واضاءة السوط كالمصباح لاسيد بن حضير فى ليلة مظلمة .. الخ » ويمضى المناوى فى سرد مئات الأمثلة .

يقول السيد رشيد رضا :

« وقد اشتهر فى عباد الملة أفراد فى ترك الأسباب كلها توكلا على الله تعـالى وثقـة به . واشتهر من تسخيره تعالى الأسـباب لهم والعناية بهم ما يعسر على الذكى تأويله بالتخريج على المصادفات المضادة (١) » .

ومن الكرامات التى رويت عن رابعة ، لتبين مدى الرعاية التى شملها الله عز وجل بها ، ما رواه المناوى فى طبقات الاولياء :

دخل لص حجرتها وهى نائمة ، وجمع ما لديها من ثياب ، ثم طلب الباب للخروج ، فلم يجده ، فوضع الثياب على الأرض . ثم بحث عن الباب فوجده ، فحملها فخفى عليه ، فاعاد ذلك مرارا كثيرة ، ثم سمع هاتفا يهتف به :

« دع الثياب ، فانا نحفظها ولا ندعها لك وان كانت نائمة » .

---

(١) تفسير المنار : جـ ١٠ ، ص ٢٢٨ .

قال العارف البونى معقبا : « وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » .

ودخل لص بيتها ، فلم يجد غير ابريق ، فلما اراد الخروج قالت له رابعة :

ـ يا هذا ان كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء .

فقال :

ـ انى لم آخذ شيئا .

فقالت :

ـ يا مسكين ، توضأ بهذا الابريق ، وادخل فى هذا المخدع ، وصل ركعتين ، فانك ما تخرج الا بشيء .

ففعل ما امرته به ، فلما قام يصلى رفعت طرفها الى السماء وقالت :

ـ سيدى ومولاى هذا قد اتى بابى ولم يجد شيئا عندى وقد اوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك .

فلما فرغ من صلاة الركعتين لذت له العبادة فما برح يصلى الى آخر الليل . فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة فوجدته ساجدا وهو يقول فى سجوده معاتبا نفسه :

اذا ما قـــال لى ربى	أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب من خلقى	وبالعصـــــيان تأتينى
فمـــا قـولى له لمـــا	يعـــاتبنى ويقصـينى

فقالت له رابعة :

ـ حبيبى ! كيف كانت ليلتك ؟

فقال :

ــ بخير ! وقفت بين يدى مولاى ، بذلى وافتقارى ، فقبل عذرى وجبر كسرى ، وغفر لى ذنبى وحقق مطلوبى .

ثم خرج هائما على وجهه ، فرفعت رابعة كفيها الى السماء وقالت :

ــ سيدى ومولاى ، هذا وقف ببابك ساعة فقبلته ، وانا منذ عرفتك بين يديك ، اتراك قبلتنى ؟

فنوديت فى سرها :

ــ يا رابعة .. من اجلك قبلناه وبسببك قربناه .

ويروى العطار فى تذكرة الأولياء أن الحسن البصرى وبعض أصحابه ذهبوا الى رابعة وكان الوقت ليلا فاحتاجوا الى مصباح فلم يجدوا ؛ فوضعت رابعة طرف أصابعها فى فمها ثم اخرجتها فظل يشع منها حتى مطلع الفجر نور كانه نور مصباح .

والعطار يفسر هذا فيقول : « ان سأل احد كيف حدثت هذه الكرامة ، فأخبره أن النور كان يشع من يد موسى . فان قيل لك أن موسى عليه السلام كان نبيا وأن رابعة لم تكن نبية ؛ فأجبه قائلا : ان من ينفذ الأوامر التى أتى بها الأنبياء يشارك فى قدرتهم على الاتيان بالمعجزات وكما أن للأنبياء معجزات ، فان للأولياء كرامات »

وهو يذكر قصة اخرى مع الحسن وهى انه ذهب اليها وكانت قد وضعت قدرا فيه لحم ، فلما بدآ الحديث عن معرفة الله ، رات أن هذا الحديث افضل من الطهى ، فتركت القدر دون أن تنفخ تحته النار . فلما فرغا من صلاة العشاء .. افرغت ما فى القدر فوجدت ان اللحم الذى كان فيه قد طهى بقدرة الله ، فأكلا (الحسن وهى) من هذا الطعام « وكان له طعم لم نتذوق مثله قط من قبل »

وهما يقومان بالكرامات معا : فهو يلقى على الماء سجادته ويصلى عليها ، وهى تلقى سجادتها فى الهواء وتصعد عليها . على أن القصة

تنتهى بعبرة عالية : فالحسن لا يستطيع ان ينافسها فى هذه الكرامة لانه لا يستطيع الطيران فى الهواء ، فابتأس ، فعزته رابعة قائلة :

« ما فعلته يستطيع السمك ان يفعله ، وما فعلت انا يستطيع الذباب ان يفعله . وانما المهم ان نبلغ درجة اعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما » .

وفى هذا القول اشارة الى ان المهم عند الصوفى ليس هو الاتيان بالكرامات ، بل الترقى فى معراج الحياة الروحية ؛ وقيمة الصوفى ليست فى عدد كراماته ونوعها ، بل فى السلوك الى الله بحيث يرضى عنه ويحظى بالقبول منه (١) .

ويروى ان الحسن البصرى (٢) خرج ذات يوم من البصرة ، واقبل على رابعة فى الفلاة ، وكان قد اصطف من حولها سرب من الحيوان : غزلان وغير غزلان ، ما كادت تبصر الحسن قادما من بعيد يسلك الدرب حتى فرت جميعا من امام رابعة . شهد هذا الحسن فاستوقد الهم صدره ، ودبت له فى النفس عقارب الغيرة . هنالك التفت الى رابعة وسألها ان تنبىء بصدق :

ـ لماذا فرت هذه الظباء السـائرة على الطريق هنـالك لما ابصرتنى ، ولم تفر منك ؟ اتراها لا ترانى أهلا لها مثلك ؟

فأجابته رابعة سائلة اياه سرا :

ـ اى شىء اكلت ؟

فقال :

ـ اكلت جذور بصل . لقد كان عندى ، أيتها الطيبة الخاطر ، بصـل وقليـل من الشحم ، فأرسلت فى دم القلب بضعة شحم منصهر ، هى تلك التى أكلتها فى تلك الساعة التى خرجت فيها .

سمعت رابعة منه هذا السر ، فصاحت عجبا :

---

(١) د. عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الالهى : ص ٩٥ .

(٢) سبق ان ذكرنا أن الحسن البصرى ورابعة لم يلتق كل منهما بصاحبه

« لقد اكلت من شحم هذا القطيع المسكين ، فكيف لا تريد منها ان تفر منك ؟ ! آه ، لو كنت رجلا أزوما خفيف الزاد مثل النملة لما يسرت لديدان قبرك ان يكظها الطعام . لو كنت لا تأكل فى اليوم الا تمرة واحدة . لسلم تابوتك فى القبر من الديدان ، فهل تريد أن تكون أسير الديدان ؟ ان تمرة واحدة لهى خير لك من تسمين الدود ، والا صرت للدود ظهيرا ومعينا فى طعامها وشرابها وما تملأ معدتك الا من أجل هذا ، لأنك صاحب مطبخ ومبرز ، فان لم تخلص قلبك من هذين الجحيمين ، ذهبت من جحيم الى جحيم آخر ، بذهابك من المطبخ الى المبرز ، لقد خيل اليك أنك ، وأنت لا تصبر على الطعام لحظة ، قد نلت ربحا كثيرا . لقد قيل لك : طهر روحك ! لكنك دائب على تعمير جسدك ، الا فلتكن لباطنك عليك حرمة أبدا . انما انت تتعبد فى الظاهر فحسب .

لقد قال رجل اشعل الروح نفسه : اذا اكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك .

ويروى ان خادمة رابعة كانت تهيىء طعاما بالزيت لسيدتها ، فلم يكن عندها بصل ، فقالت لها :

ــ سأسأل جارتنا واعود .

فقالت رابعة :

ــ منذ اربعين سنة وقد عاهدت الله الا أسأل أحدا شيئا غيره ، فاذا لم يكن ثمت بصل ، فلا ضير .

وفى الحال تبدى طائر يحمل بصلا قشره وقطعه قطعا والقى به فى المقــلاة فلم تأكل رابعــة من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، ثم قالت :

ــ يجب على المرء الا يغتر بحيل الشيطان !

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارة رابعة ، وكانا جائعين ، فقدمت لهما رغيفين كانا عندها . وفى تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على

الباب ، فقدمت اليه الرغيفين ، فدهش العالمان وجلسا يتأملان ما جرى . فشاهدا خادمة تحمل مفرشا من الخبز وضعته أمام رابعة وقالت : « ان سيدتى فى خدمتك » . فلما عدت رابعة الأرغفة وجدتها ثمانية عشر . فأعادتها الى الخادمة مع المفرش وقالت : خذيها واذهبى ؛ لقد اخطأت العـــدد . فقالت الخادمة : كلا لم اخطىء . فقالت رابعة : كلا ، بل ثمت خطأ فأخذت الخادمة المفرش وذهبت الى سيدتها ، وروت لها كل ما حدث فوضعت الســيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وارسلتها . فأحصت رابعة عددها فوجدته عشرين ، وضعتها أمام ضيفيها من العلماء فلما فرغا من الطعام سألاها السر فيما حدث . فأجابت رابعــة : « لما وصلتما عرفت انكما جائعان فقلت لنفسى : ليس عنــدى الا القليل . وفى تلك اللحظة جاء السائل الذى أعطيته الرغيفين ثم دعوت هــذه الدعوة الهى ! لقد قلت : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) وانا من أجلك اعطيت رغيفين ، فاعطنى عشرة عن كل واحد فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشرة رغيفا قلت لنفسى : اما أن يكون أحد الناس اخذ منها اثنين ، واما الا تكون لنا ، ورددتها ، فلما اعادتها بزيادة رغيفين ، فهمت أن هذه لنا (٢) » .

ويروى انها زرعت زرعا فوقع عليه الجراد فقالت :

الهى . رزقى تكفلت به ، فان شئت فأطعمه أعداءك واولياءكَ ».

فطار الجراد كأنه لم يكن .

هذه هى بعض كرامات رابعة ، اكرمها الله بها ، دون ان يدخل بها الغرور على نفسها ، ودون أن تتجر بها ، لانها كانت تعلم أن الله عز وجل هو الذى يجريها على يديهـا ، دون أن يكون لها سلطان او ارادة عليها .

كانت تمر بقوم عرفوا فيها العبادة ، فقال لها رجل قابلها ذات يوم فى الطريق :

---

(١) سورة الانعام : ١٦٠

(٢) فريد العطار : تذكرة الاولياء ص ٦٢

ـ ادعى لى !

فالتصقت رابعة بحائط ونظرت الى الرجلّ ، وقالت له :

ـ من انا يرحمك الله عز وجل ؟ اطع ربك وادعه فانه يجيب المضطر اذا دعاه .

ويقول ابن منظور : دخلت على رابعة وهى ساجدة فاذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، فسلمت ، فاقبلت على فقالت :

ـ يا بنى ! لك حاجة ؟

فقلت : جئت لأسلم عليك .

قال : فبكت . وقالت : سترك اللهم سترك ، ودعت بدعوات ثم قامت الى الصلاة وانصرفت .

ان الزاهدة الاولى فى الاسلام التى تفجر من قلبها ينبوع المعرفة الالهية ، عاشت فى اطوار حياتها ، معتصمة بالزهد ، حتى زهدت فى أن تكون من أهل الكرامات ، ان قلبها مشغول بحب الله ، وطاعته ، ومناجاته . .

وتخللت مسلك الروح منى ـــ وبه سمى الخليل خليـــلا
فاذا ما نطقت كنت حديثى ـــ واذا ما سكت كنت الغليلا

ورابعة التى احبت ربها عز وجل ، واخلصت له العبـــادة ، وغدت مثلا فى صفاء الروح والهام البصيرة ، لم يمسها شىء من الغرور ، اذ كانت تخشى الا يقبل الله شيئا من ذكرها ولا عبادتها !

قيل لها :

ـ هل عملت عملا ترينه يقبلّ منك ؟

فاجابت :

ـ ان كان ، فمخافتي أن يرد على .

هذا هو الايمان الصادق . انه ايمان من تخاف الا يقبل الله من عملها شيئا . انها رددت ذلك المعنى العظيم الذى ردده من قبل ابو بكر الصديق رضى الله عنه فى قوله :

ـ لو كانت احدى رجلى فى الجنة والاخرى خارجها ، لما امنت مكر الله .

ان رابعة التى ضاعت منها نفسها فى عهد عبوديتها الاولى وجدتها بين يدى ربها ، ولاء له وحده وحبا ومآبا ..

١١ - مع الخالدين

عاشت رابعة طوال حياتها المباركة مجاهدة في الله ولله ، فهداها ربها سبله ، والهمها طرقه ، وافاض عليها من لدنه رحمة وعلما . وزكاها واصطفاها وبارك لها في انفاسها وقدر لها اقواتها ، من عالم النور والصفاء .

وقد كانت رابعة في المرحلة الأخيرة من حياتها ، مثقلة بالعلة واللوعة من جهد السنين ، وكانت تبكي وتنوح لا من شدة الألم ، بل كدابها كلما ابتهلت وتضرعت ، وقد سئلت يوما :

ـ ما يبكيك يا رابعة ؟ وماذا تشكين ؟

فاجابت :

ـ وا أسفاه ! ان العلة التي اشكوها من نوع لا يستطيع طبيب أن يشفيه ، ودواؤها الوحيد هو رؤية الله ، وما يعينني على احتمال هذه العلة ، هو رجائي في أن ابلغ رغباتي في العالم الآخر .

والح عليها أحد اخوانها أن تكف عن البكاء فقالت :

ـ اخشى أن ينادي صوت في اللحظة الاخيرة : ان رابعة ليست جديرة بالمثول في حضرتنا .

واعتل جسد رابعة وتفانى ، بيد ان قلبها بقي مستيقظا حافظا ، اذ كانت ترى أن من العسير ، تمييز المقامات المختلفة في الطريق الى الله بالنظر ، وليس بالامكان الوصول اليها باللسان ، فليكن قلب

المتصوف العارف مستيقظا دائما ، ليرى بعينيه الطريق ، ويبلغ المقام .

ولم تكن تأكل فى خلال الاسبوع الا قليلا ، لأنها على الرغم من اعتلالها كانت فى شغل دائم بالصلاة والصوم ، فاذا اجهدها السهر وضعضعها الجوع انهارت ساقاها ، وسرى التكسر فى اعضائها ، فرضيت بأن تتناول طعامها وليس فيه الا ما يسد الرمق ، ويقيم الأود .

وفى آخر ايامها انقطعت عن الطعام حين احست دنو الموت ، واوصت خادمتها عبدة بنت ابى شوال بأن لا تعلم احدا بوفاتها ، وان تكفنها بجبتها التى كانت ترتديها ، وهى من شعر فى مصلاها ، وتلف راسها بخمارها الاسود .

ولما حضرتها الوفاة جلس نفر من صحبها ومريديها فقالت لهم :

ــ انهضوا واخرجوا ، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله .

فنهضوا محزونين ، ووقفوا ببابها يرهفون السمع نحوها ، فسمعوا صوت رابعة وهى تنطق بالشهادتين ، فأجابها صوت :

« يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

وسابق جيرانها وصحبها الى تجهيزها ودفنها ، مترحمين عليها بعد ان صلوا عليها وشيعوها بالدمع والتوقير .

وفى القبر ، تلقاها الملكان الكريمان فماذا قالت لهما ؟ رئيت رابعة بعد موتها فى المنام ، فسئلت :

ــ بماذا اجبت منكرا ونكيرا ؟

فقالت :

ــ اتانى منكر ونكير ، فسألانى من ربك ؟ فأجبت : ايها الملكان ، اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى ، انت تأمر بسؤالى انا المراة العجوز

بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التى لم أعرف غيرك ، افنسيتك مرة ، حتى تبعث الى بمنكر ونكير يسالاننى ؟

انتقلت رابعة من الحياة الفانية ، الى الحياة الخالدة ، حيث أعد الله لعباده المتقين ما تقر به عيونهم وتفرح قلوبهم .

قالت خادمتها عبدة : « رايت رابعة بعد موتها بسنة أو نحوها فى منامى ، عليها حلة من استبرق خضراء وخمار من سندس اخضر لم أر شيئا أحسن منهما .

قلت :

ــ يا رابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفناك بها والخمار الصوف ؟

قالت :

ــ انه والله نزع عنى وابدلت به هذا الذى ترينه على ، وطويت أكفانى ، وختم عليها ، ورفعت فى عليين ليكون لى ثوابها يوم القيامة .

فقلت لها :

ــ لهذا كنت تعملين فى الدنيا ؟

فقالت :

ــ وما هذا عندما رايت من كرامة الله لأوليائه ؟

فقلت :

ــ فما فعلت عبيدة بنت أبى كلاب ؟

فقالت :

ــ هيهات هيهات ! والله سبقتنا والله الى الدرجات العلى .

فقلت :

ــ وبم وقد كنت عند الناس اكثر منها ؟

فقالت :

ــ لم تكن تبالى على اى شىء اصبحت من الدنيا وأمست .

فقلت :

ــ ما فعل بشر بن منصور ؟

فقـــالت :

ـ بخ بخ ! اعطى والله فوق ما كان يأمل .

فقلت :

ـ فمريني بأمر اتقرب به الى الله عز وجل .

فقـــالت :

ـ عليك بكثرة ذكره ، فيوشك ان تفتبطي بذلك في قبرك . والله اعلم » .

ماتت رابعة ، بعد ان خلفت وراءها الذكريات الحلوة ، والمعاني السامية ، التي جعلت كل عارف بها ، يترحم عليها ويدعو لها .. وكان اكثر الناس دعاء لها ، من عاصروها وعرفوا فضلها .

قال بعضهم : كنت ادعو لرابعة العدوية ، فرايتها في النوم تقول :

« هداياك تأتينا على اطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور » .

وقد اختلف المؤرخون والباحثون في تحديد العام الذى توفيت فيه رابعـــة ، فابن خلكان وابن شـــاكر وابن العماد الحنبلي في « شذرات الذهب » قالوا ان وفاتها كانت عام ١٨٥ هـ ومن المؤرخين من قدمها وراى انها وقعت سنة ١٨٠ هـ وفيهم المناوى في كتـــاب « طبقات الصوفية » .

وقبر رابعة لا يعرف مكانه على وجه الجزم ، اذ التبس عـــلى المؤرخين الأمر فيمن تسمت باسمها ، وكانت مثلها عابدة صالحة ، او متصوفة متقشفة ، كرابعة الشامية زوج احمد بن الحوارى . والحقيقة التي توصل اليها بعض الثقات من المؤرخين ، كياقوت الحموى وابن بطوطة ان رابعة العدوية دفنت في بلدها البصرة . اما وجود قبرين لمن سميتا باسمها ، احدهما في ضواحي القدس البدوية ، والثاني في حى القيمرية بدمشق لرابعة الشامية ، فله اشباه وامثال .

ويعلل هذا التكرار فى مراقد هاتين الصالحتين انهما جاءتا بعد رابعة البصرية وسميت كل منهما باسمها .

وقد جاء فى « تذكرة الأولياء » و « حلية الأولياء » زار محمد بن أسلم الطوسى ونعمى الطرطوسى قبر رابعة فقالا :

ـ يارابعة ! لقد افتخرت بأنك لم تحن راسك امام هذه الدنيا ولا الآخرة ، فأين انت الآن ؟ !

فصاح صوت من قبرها يقول :
ـ حبذا ما حدث لى . ما فعلت هو ما كان على أن أفعله ، والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى » .

* * *

لقد ابتدعت رابعة العدوية الحب الالهى ، فى مذهب التصوف الاسلامى ، وكانت ـ كما يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ « هى السابقة الى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف الاسلامى ، وهى التى تركت فى الآثار الباقية نفثات صادقة فى التعبير عن محبتها وعن حزنها ؛ وان الذى فاض به الأدب الصوفى بعد ذلك من شعر ونثر فى هذين البابين لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية أمام العاشقين والمحزونين فى الاسلام » .

وحسب رابعة العدوية فضلا انها تركت تراثا روحيا يبعث النور والضياء ويرشد الحيارى ، ويعلم الناس الحب الذى هم احوج ما يكونون اليه .

وعندما يقف العالم مضطربا حائرا يبحث عن هاد ومرشد فلن يجد سوى هؤلاء المجاهدين فى الله لأنهم وحدهم مثل عليا ، وقوة روحية هائلة توشدهم الى الأمن والطمأنينة والسلام ..

فهـــرس

صفحة

- مقدمة ٧
- فى الطريق الى رابعـــة ١٥
- صـــورة عصر ٤٣
- مولدها ونشأتهـــا ٤٩
- العذراء البتول ٦٦
- المؤدبة الزاهدة ٧٠
- فى مراقى الصـــفاء الروحى ٧٩
- الحب الالـــهى ٨٦
- الحب .. والمعـــرفة ١١٠
- التجريد الحسى عند رابعة ١١٥
- كرامات رابعـــة ١٢٧
- مع الخـــالدين ١٣٨

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٢٠/١٩٧١

الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠